كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : كامل زهيري

العدد ١٩٨ جمادى الآخرة ١٣٨٧ سبتمبر ١٩٦٧

No. 198 — Septembre 1967

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى ج.ع.م — والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــلاف بريشــــة
الفنان حلمى التونى

كامل زهيري

ممنوع الهمس

دار الهلال

نيــويــورك..

مدينة السكتة القلبية



نيويورك صاخبة ، مرحة بلا مناسبة ، غاضبة بلا سبب ، بيوتها من زجاج ، أعمدتها حديد ، تسافر فيها الى أعلى : فى الاسانسير ٠وترتفع فى لمح البصر ، من الارض الى الطابق المائة والخمسين ٠ الذين يركبون يبلعون لعابهم ، حتى يقاوموا ضغط السرعة على آذانهم ، والذين ينزلون كأنهم يهبطون « أخلاقيا » .. فالهبوط الاخلاقى هو الهبوط الحقيقى !

ونيويورك تهتز وتتحرك ..

كنيدى يجلس على كرسى هزاز ٠ البارات معتمه أو خافتة ، الضوء كالشمع ، والصوت همس ، ولكن العلامات مضيئة ، تتحرك ، ولا تتركك تسرح ، لابد أن تحلم واقفا .. وأن تتحدث قبل أن تفكر ..

يتحدثون ويشربون بسرعة . الطبق يقدم اليك ، ويؤخذ منك قبل أن تأكله ، القهوة تقدم مع الاكل ، لا يوجد « قبل الاكل » « وبعد الاكل » . يوجد أكل فقط ، أكل ٠٠ أكل ٠ مضغ ٠٠ مضغ ٠٠ مضغ ٠ وقد يمضغون لا شىء ٠٠ اسمه عندهم اللبان

يتحدثون بسرعة ، وتعجب كيف يفكرون ومتى ؟

المفكر يفكر بسرعة المنولوجست . قال لى مخـــرج مسرحى ان اعداد مسرحية لشكسبير يســتفرق ثلاثة أعوام ، حتى يتعلم الممثل الامــريكى كيف يوازن ويوفق بين سرعته العادية ونغم شكسبير البطىء

ولا تجد فى نيويورك طفلا يدبدب ، ولا شيخا يدب . ولا عصفورا يزقزق . لان السرعة تخيف الطفل والشيخ والعصفور

وهى مدينة السكتة القلبية .

الرجل لا يموت على سريره . فى وسط مكتبــه ، أو على حافة الرصيف .

أهم الحوادث هى الحريق .

كل شىء يحترق . يمتص الاعصاب .. ويحرقها ، ويحترق .

صوت عربات البوليس يصرخ . صـــــوت عربات المطافىء يعوى . نيويورك صاخبة ، مرحة بلا مناسبة ؛ غاضبة بلا سبب ، وكل شىء له ضجة ، مثل ضــجة المسمار الكهربائى الذى يخترق الاســفلت .. ماعدا الانسان ، الذى يتزحلق . يحمله سلم كهربائى ، وتنقله عربة . وتستقبله شاشة تليفزيون . ويحدث زوجته أو حبيبته بالتليفون .

كل شىء « تمكنك » بفتح التاء والميم . . من كلمــة الماكينة .

اذا أطل الرجل من النافذة لن يرى الســماء ، ولن يشهد الارض ، سيرى نافذة جاره . منذ ســــــنوات

يعيشان معا ، ولم يقرئه السلام . ولو حدث فهو أقل سلام فى العالم . فالسلام فى أمريكا حرفان : هاى ! وهو اختصار لكلمة واحدة أيضا هى : هالو !

ناطحات السحاب جميلة من الخارج ، لانها نظيفة قاطعة كحد الموسى . تلمع لانها من الصلب الابيض . زجاجها كالمرآة .. حجارتها تلمع كالزجاج . ولكنك تحس أن ناطحات السحاب ليست لها جذور فى الارض.

انها مجرد كميات هائلة من الحجارة أو الحديد والصفيح والزجاج . كومت بعضها على بعض ، فوق سطح الارض .

الفرق بين أى بيت فى الخارج : فى أوروبا وآسيا وعندنا ، أن بيوتنا لها جذور فى الارض كجذور الشجرة، وأحيانا كجذور الازهار داخل الارض . بيوتنا ضعيفة ضعف الانسان . مائلة .. ليست قاطعة كالسيف . أنها خطوط تقريبا ..

ولكن العمارات فى نيويورك حديد على أسفلت .

والشوارع أرقام : الشارع ٩٠ ، والشارع ٤٢ ، والشارع ١٣ لا تعرف بأسماء العظماء أو الادباء او العلماء .

وهذا وحده يؤكد الطابع التجريدى فى البناء والاسماء ... والحياة .. ويشعرك بالغربة ..

فكيف تحب رقما ؟

ولا أحد على نواصى الشوارع . لو وقفت على الناصية ، تقاذفتك المارة ، وأزعجتك الحركة . فتهرب الى داخل مكان .

والهواء عاطن . ساخن بارد فاسد . مكيف ، البار

بهتكييف هواء ساخن . وفى الركن مروحة كهربائية باردة . الكهرباء فى كل شىء حتى الشمس !

ولا تبحث عن الشمس فى نيويورك . فكيف تصل اليك ، وتخترق كل هذه الحجارة العالية !

ولا تبحث عن الهواء أو الشيخ أو العصفور ..

فكل من يعيش فى نيويورك متوسط العمر . فى العنفوان . الرجل طويل . أنيق . حليق، شعره نظيف . أسنانه لامعة . منذ عشرين عاما أو يزيد ، يطيع أوامر مصانع جيليت .. وفرشاة الاسنان « المفضلة » كولجيت ! فى عينيه شرارة القلق . وفى خطاه ثبات المقامر ، ولكنك تلمح ذبولا تحت العينين . وحزنا فى التجاعيد .. لا تمحوه مياه الكولونيا . ولا تضيئه مستحضرات التجميل !

والمرأة شابة دائما . نحيفة . تتفجر بالحيوية .. بيضاء .. قصت شعرها .. ونفشته ، أو صبغته .. الروج مسبوك . والكحل محبوك . وكله طراز واحد من هوليوود . الثياب الداخلية قليلة ، رقيقة . هفهافة . تدرك ذلك بسهولة . لان الثوب الخارجى ينسدل على الجسد بلا « كلاكيع » أو مبالغات !

أغلبهن سكرتيرات فى مكاتب . وعند رجال أعمال . ثقافتهن من مجلة « المختار » وغذاؤهن الغالب السندوتش ، وشرابهن المفضل الشمبانيا . تسألك عن مركزك بعد اسمك .. وأحيانا قبل أن تبدأها الكلام !

وأروع مافى فتاة نيويورك : أجادة السذاجة وصناعة الابتسام واغرب مافيها كثرة التدخين . والتدخين حتى فى الشوارع .

فاذا أقدم يوم السبت ماتت المدينة .

والجميع يتمتعون بعطلة نهاية الاسبوع خارج المدينة. يشمون هواء الله لاول مرة منذ خمســة أيام . ولعلهم ينـــامون في بيوتهم على السرير لاول مرة . لانهم كانوا ينامون في الايام السابقة وهم واقفون . فقد كان كل شيء يتحرك كمروحة الطائرة . وكان الرجال يجرون كخيول السباق التى حقنت حقنا صناعية حتى تنشط وتكسب السباق الكبير . وبعد السباق ترتمى على الارض لاهثة بلا حراك .

والسباق الكبير جائزته في نيويورك البقاء في نيويورك!

هارلم



النظرة عندنا ، بعدها ابتسام ولقاء .

ولكن النظرة بين البيض والسود مختلفة .. انها قتال بمسدسات مكتومة الصوت . وقد تذكرت ماكتبه سارتر عن النظرة من انها تحمل معنى العداء.. فالحنان مستبعد . والقتال مستحب . والنظرة كوبرى معلق لا يصل الى شيء !

أنت شيء آخر غيرى ..

والكارثة اننى لا أستطيع أن أعرفك ..

اللقاء مستحيل .. لان الجليد العاطفى يتساقط بينى وبينك .. على التو ، وبمجرد النظر ..

انها حرب أهلية باردة بلا دم ، ولا قتال ..

وذهبت الى هارلم ، حى الزنوج فى نيويورك ..

وهارلم كانت فى الاصل حيا أبيض ، يسكنه البيض .. وهو على حافة حديقة عامة كبيرة .. ولكن بعض الزنوج .. نجحوا فى أن يحصلوا على بعض الشقق أو الغرف .. وبدأوا يسكنون الحى ، واكتشف البيض أن

الزنوج يزحفون عليهم ! فتركوا لهم الحى بأكمله حتى أصبح جزيرة سوداء .. فى بحر أبيض ..

وهارلم تبدأ من الشارع ١١٢ .
ولم أعرف الحى بالرقم . ولكننى عرفتـــه بتجربة غريبة .
فحين ركبت الاتوبيس من وسط نيويورك فى الشارع ٤٢ . حيث الملاهى الصاخبة ، والانوار المضـــاءة فى عز النهار ، اتجه الاتوبيس الى شرق المدينة .. الى هارلم .
وكانت فى الاتوبيس وجوه عديدة من البيض والسود لم أنتبه لها كثيرا .. فقد كنت أقلب النظر فى الشارع ، وأسرح فى العمارات الضخمة على الجانبين ..
وحين اقتربنا من الشارع ١١٢ ، بداية حى الزنوج ، التفت الى داخل الاتوبيس لفتة عادية ، لالقى نظرة !

وفوجئت بمشهد عجيب ..
لقد أصبح الذين يركبون معى فى داخل الاتوبيس من السود . أختفي البيض فجأة ، وكأنك رفعت البقع البيضاء من لوحة سوداء .
واكتشفت أن جميع الركاب البيض نزلوا من الباب الخلفى فى المحطات السابقة ..
وعرفت أننا نقترب من حى الزنوج .. ولم أســـأل أحدا عن العنوان ..

ونزلت الى هارلم ..
وهارلم مدينة شبه مستقلة فى نيويورك ..
شوارعها عريضة كشوارع نيويورك ، ولكنهـــا أقل ازدحاما ..

بيوتها قزمة .. اذا قورنت بناطحات السحاب ..
وألوانها صفراء داكنة ، تشبه البيوت الانجليزية العتيقة .
الحجارة فيها أهم من الزجاج الذى يلمع فى بيوت نيويورك ..
وأحسست اننى أمر فى بومباى .. أو فى مدينة آسيوية .
فاللون الاصفر ، والاسود ، والاحمر ، هو اللون الغالب .. وكل شيء مضروب في سواد أو صفار ..

واقتربت من حديقة جرداء ..
الشتاء جرد أشجارها من الاوراق ..
وعلى المقاعد يجلس التعساء ، والعاطلون .. والفاسدون الذين فشلوا في أن يرتفعوا الى مصاف رجال العصابات، فأصبحوا شراذم يشربون أرخص أنواع البيرة ، ويضحكون على الرغم منهم لابوخ النكت ، وأفظعها لفظا ، وأبشعها معنى ..
والامريكى يضحك كثيرا ..
وقد قال لى أمريكى صحفى ، يحب الشرقيين ، صفا لى بقلبه ، وحدثنى حديث القلب :
ـ اننا فى أمريكا نحب أن نضحك كثيرا ..
اننا نحب أن نضحك معك .. ولكننا نخاف ـ خوف الجنون ـ من أن يضحك علينا أحد ..
والزنجى الامريكى ـ على تعاسته ـ يتشبث بطريقة الحياة الامريكية ، وأولها الضحك ..
ولكنهم فى هارلم يضحكون من التعاسة ..
انهم « يجهشون بالضحك » !

ووجدت كنيسة في بدرون . .تنزل اليها بعدة سلالم تحت الارض .. علقت الصليب على الجانب ، كما تعلق اعلانات الصيدليات !

ولمحت على النافذة الزجاجية اعلانا يشبه اعـلانات صابون الحلاقة ..

القسيس « . . . . . . » يحيى حفلة موسيقى ..
وبعدها الصلاة ..

وأحسست أن الدين ـ عندهم ـ يرتعش بالموسيقى!

وأن الغناء والطرب والحركة لا تعنى ماتعنى عندنا من معان ..

ولذلك فالقسيس ـ غير المتفرغ ـ قد يلعب البيانو ، أو يعزف على الجيتار .. ثم بعدها يعمد طفلا ..

ودخلت الحديقة ، فاذا بالاطفال كثيرون ..

واذا برجل يصيح من بعيد بازدراء :

ـ ابتعد ياشاب !

واكتشفت انه ينذرنى بالابتعاد ، حتى لا تصيبنى كرة من كراته التى يطيح بها ، بقوة هرقلية ..

انه يلعب الجولف ..

وابتعدت ، ولا داعى للاعتذار ! لانه كان يبعد عنى أكثر من مائة متر ..

فصـــاح فى ، بعد ان ابتعدت ، بأعلى صـــوته ، كأى جنتلمان :

ـ شكرا !

وجلست ، بعد أن أتعبنى اللف ..

وكأنما أصـــابنى الوهم أننى تســـــــممت من أكلة وأنا فى الغربة . فجلست أقلب صفحات الجريدة ..

فللزنوج جرائدهم اليومية ، ومجلاتهم الاسبوعية ، وأقلامهم الجادة . ورسومهم الفكهة .

ولهم مجلة أسبوعية تشـــبه مجلة « لايف » : نفس الحجم ، ونفس الطباعة ..

اسمها « ايبونى » أى العاج .. أو « عسل وطحينة »!

وهو اللون الذى يحلم به السود ، كما يحلم البيض بلون الزمردة الزرقاء ، أو كما تحلم الفتاة الزنجيـــــة بانسياب شعرها ، دون كى أو عناء !

ومجلتهم تعالج مشاكل الزنوج ..

فتتحدث عن دور أجدادهم فى الحرب الاهلية

ثم تتحدث عن نجوم الزنوج ..

وللزنوج نجوم ، أغلبهم فى مجال الغناء والموســـيقى والرقص .. أو الرياضة ..

ومن الزنوج أبطال رياضيون أفذاذ ..

بعضهم عنيف ..

والملاكمة أبطالها زنوج ..

وقد حلل أحـــد الكتـــاب ظاهـــرة تفوق الزنوج فى الرياضة ، وخاصة فى الملاكمة ، بأنهم يفرجون عن أزماتهم الاجتماعية فى حلبات الرياضة ..

انهم يكرهون البيض .. والملاكمة انتقـــــام شرعى لمايلاقونه من عذاب خارج الحلبة ..

ولكن الرياضة على كل حال معبودة الجماهير ..

ولعبة « البيسبول » التى تعبدها الجماهير أبطالها ــ فى الغالب ــ من الزنوج ..

لان فيها استعراضا .. ولان فيها تجمعا .. ولان فيها تحرشا ومباراة وتفوقا ..

والامريكيون يعشقون الاستعراض والتجمـــع والتفوق .. ونذة الاقتحام ..

وفي مجلة « ايبوني » أحاديث وكتابات أغلبها ، أن لم تكن جميعها ، عن الزنوج ، يختلط فيها الدفاع ، مع فن الصحافة الامريكية والاثارة ..

وأغرب مافي هذه المجلات انها تنشر اعلانات غريبة ..

والصحف تعتمد على الاعلانات أكثر الاعتماد ..

ولكنها تنشر اعلانات « زنجية » أو طبعات « سمراء » من اعلاناتها البيضاء !

فشركة فورد مثلا ، تنشر اعلانا عن سياراتها ..

ولكنها لا تصور الرجل والمرأة رجلا وســـيدة من البيض كالمعتاد ..

انها تصور رجلا أسود وسيدة سوداء .. يقـــولان نفس الكلام الذي يقوله الرجل الابيض والسيدة البيضاء في الاعلان الآخر :

ـ يالها من روعة وراحة ومزاج .. !

أو اذا أردت أن تدخن أقل عددا وأمتع كيفا ، فاشرب سجائر وسيجار « وينستون » ..

يقولها شاب زنجي يصورونه مبتسما من شـــدة المتعة والبهجة .. بل والطرب المشدود .

وبارات هارلم كثيرة ..
مظلمة ككل بارات أمريكا . .
انها كهوف على سطح الارض ..

لا تبين فيها خطاك .. كأنك تدلف الى قبو من قباء الخمر .

وتعجب كيف يعيش فيها الناس ..

يجلسون قليلا .. ويقفون كثـــيرا .. ويترنحون كأعواد الحطب ..

وفى كل بار « بنك » هو البنك الامريكى الذى اشتهر فى العالم باسم البار « الامريكانى »

طويل يمتد من أول البار حتى النهاية .. من الخشب الاصم ..

وهو الشىء الوحيد « المتماسك » فى هذا الحفــــل الساهر الذى لا يدعى اليه احد ، ويشترك فيه أى عابر سبيل ، متى دفع الحساب ..

وفى البار ماكينة تضع فيها « العملة » ، وتضغط على زر ، فتنزل علبة سجاير .

وماكينة أخرى تضع فيها العملة ، وتضغط على زر ، فتسيل الى اذنيك ألحان الجاز ، والموسيقى الزرقاء .. التى تقطر بالشجن ، كأنك تعتصر عنبة ، أو تقــود قلبا سهل الانقياد ..

وخرجت اتجه الى الحديقة مرة اخرى ، وليس للغريب سوى الحدائق .. ومررت بدكان فيه عرافة علقت صورا غريبة ، والوانا عجيبة .

علقت ستائر مزركشة ، فجعلت الدكان المكشـــوف على الشارع كأنه مخدع !

وفى داخل الدكان الغريب ، أو المخدع المريب ، سيدة شعرها أسود لامع منسدل .. قد تكون من أصـــل

مكسيكى أو أســـــبانى .. فالالوان فى غرفتها خضراء وبنفسجية زرقاء ، صفراء ، مما يميزها عن بقية الالوان البنية الشائعة فى هارلم .

وهى ترمقك بالنظرات الواسعة الباردة .. كأنهـــا تمثال من الغيب .. يقرأ مافى رأسك .. ويرى مستقبلك .. فلا تطيق هذا الود المفروض عليك من أول نظرة .. وتبتعد ..

وعرجت على الحديقة .. مارا بكنيسة عملاقة ..

ان كل شىء فى هذا الحى ملىء بالغبار .. غبــــار ، وضباب غريب ..

هل هى الوحشة !

حتى الهواء غريب .. يشبه الصهد الذى يرتفع من الاناء الذى يغلى ، اذا رفعت عنه الغطاء قليلا ..

انه بخار الحزن !

ورأيت أطفالا يلعبون .. والاطفال نعمة ، لانهـــم لا يعرفون شيئا . . وأحيانا تصبح تلك البراءة نعمة العمر وجائزة الحياة ..

وأردت أن أستريح الى صدر طفل صغير .

أن أحدث طفلا .. أى طفل .

عندهم ـ بلا شك ـ ترتد حواجز اللون ، وعقـــدة الطبقة ، وفوارق الثراء ، ويذوب كل ما يفصل الانسان عن الانسان ..

واذا بثلاثة أطفال وصبية يقتربون منى .

والاطفال عديدون فى هذا الحى .. يلعبون فى الشوارع لعب الحوارى ..

وأدركت أن المنازل تضيق بهم .. فيطردهم أهلهم الى عتبات المنازل ، أو حواف الحدائق ، أو أركان الشوارع الخلفية ..

واذا بفتاة طويلة ، أطول من عمرها .. فى التاسعة. وفتى طيب يلبس نظارة ليس له عمر . وطفل فى السادسة .. مضحك .. شقى ، أسنانه بيضاء جدا ، ومكسرة كأنها قطع السكر حين توشك أن تذوب ..

عرفت انه عفريت ، لانه يحب اضطهاد « الفتى الطويل الطيب الذى يلبس النظارة »

سألته :

ـ هل تذهب الى المدرسة ؟

فقال :

ـ لا ..

فقلت :

ـ ياللعار ! .. وهو تعبير أمريكى ذائع الاستعمال ! أردت أن أذيب به مايربك الحديث فى دقائقه الاولى

وقلت له : ماذا تريد أن تكون حين تكبر ؟

فهز كتفيه ، وفتح فمه ، وظهرت أسنانه البيضاء اللامعة الساذجة ، فعرفت انه لا يعرف . !

وضحكت الفتاة ـ الذكية ـ لتقول انها تذهب الى المدرسة مع هذا الفتى الطويل !

وقالت لى الفتاة : هل هذه آلة سينما ؟

وكنت أحمل معى الكاميرا ..

فقلت لها :

ـ انها كاميرا عادية ..

فقال الفتى الصغير وهو يقفز :

ـ التقط صورتى ..
وسألنى الفتى الطويل صاحب النظارات :
ـ هل هذه آلة تصور وتحمض فى نفس الوقت ؟
فقلت : لا .. انها عادية !
وانعقدت صداقة ـ على الفور ـ بيننا نحن الاربعة..
فقلت :
ـ لن التقط صوركم الا اذا غنيتم اغنية ..

وقد أوحي لى ذلك مارأيته منهم .. فقـــد كانوا يجلسون فوق مسند الاريكة الخشبية . .ولا يكفون عن الحركة . وكانوا بين الحين والآخـر يضربون بأيديهم ، كأنهم يمسكون « الوحدة » .

أنهم يميلون ويتململون بطرب داخلى ، لا تعـرف مصدره .. والزنوج أمة النغم ..

وضربت لخمة مع الصفير الشقى ..
وأخذوا يتحاورون فى ارتبـــاك أول الامر ، وأنا ألح عليهم ، ثم راحوا يغنون أغنية شائعة بين الزنوج ..

أضرب الارض ، ولا تعد الينا
.. يا جونز
أضرب الارض ،ولا تعد الينا..
أضرب الارض ، ولا تنظروراءك
يا جونز
انك أردأ الرجال ..
أضرب الارض ، ولا تعد الينا،
ولا تنظر وراءك ، أضرب الارض
فأنت بلاشك رجل ردىء . .
انك أردأ الرجال يا .. جونز !
....

وهبط المساء على هارلم ، حى الزنوج فى نيويورك كأنه أول ليل فى عمرى ! ..

فلقد كان مغرقا فى السواد ..

وبدأت أنسحب من الحى ، وأنا مثقل القلب ، متعب القدمين ، معتل المزاج .

وغرقت هارلم فى الكآبة ، كأنك غمست كسرة خبـز فى كأس من الماء ..

وازداد عدد الزنوج فى الشوارع ، وبدأت امواجهم تتلاطم كالمياه الثقيلة العميقة الغور ..

وهناك فى النافذة ، امرأة زنجية تتحدث بأعلى صوتها مع جارتها حديث كل مساء . والاطفال يعـــودون الى بيوتهم كأنهم لم يشبعوا بعـــد من التراب واللعب .. والرجال يترنحون جميعا .

بعضهم سكارى ، ولهم حق فى ان يترنحوا .. وغير السكارى يترنحون أيضا ، وكأنهم خرجوا من حلبةملاكمة بعد أن تصادموا بكل قواهم . وظلوا يتصادمون ، حتى انهدم فيهم كل شيء .. وبدا عليهم انهاك شديد .

والشوارع مليئة بالمضروبين الذين يترنحون من غير سبب ظاهر .

وابتعدت عن الميدان ، الذى يفصل حى الزنوج عـن بقية نيويورك .. واذا بمنظر غريب يفاجئنى .

مقعد من مقاعد الحدائق جلس عليه بعض العواجيز .. والاطفال ..

ولكننى تفرست فى الجالسين ولم أصدق ..
هل هى صدفة حقا ؟

لقد جلس عجوزان أبيضان ، رجل وامرأة على المقعد من ناحيــــة الشرق . حى البيض .. وجلس عجوزان آخران ، رجل وامرأة أيضا من السود من ناحيـــة حى الزنوج فى الغرب ..

فكيف حدث هذا التقسيم ؟

ولم أصدق أنها صدفة ؟ وألححت على نفسى لنفسى على أنها مجرد صدفة ..

من المستحيل أن ينفصل البيض عن السود فى الحياة. وأن يحدث هذا الانفصال حتى على مقاعد الحدائق !

ولكنه منظر جعلنى اتفرس النظر فى مشكلة الزنوج.. لألاحظ كل شيء ، حتى ولو كان صغيرا ويبدو تافها .

جيمى

أعظم لاشيء فى العالم



وعدت الى الفندق فى وسط حى نيـــويوك . الى « جيمى » الزنجى الذى يعمل فى الفندق وتذكرت اننى حين سألته عن اسمه فاجأنى :

ـ سمنى ماشئت !

جيمى، أو جون، أو جوهان، أو ديك.. أو حتى ابراهام ... وهز كتفيه قائلا :

ـ ماذا يهم ؟

وبدا لى جيمى كأنه يبيع اسماء عديدة .. ولا يلزمك أن تقبل اسما معينا ، لانه يبدى اســتعداده ليغيره ، ويفصله حسب الطلب ..

ودهشت .. لماذا لايعبأ جيمى باسمه ..

ان كثيرين ينطقــون أســماءهم بشىء من الاصرار والضغط على الحروف .. وكثيرين يصطنعون الحيـاء أو الاستحياء أو شيئا من التواضع المفتبط .. ولكنهم ، على أى حال ، يقولون أسماءهم بشىء من الجدية .

ولكن جيمى يقبل أن تسميه أى اسم .

وتنبهت الى جيمى الذى يعمل فى المصعد يوم الاحد .. وهو يوم العطلة المقدس فى نيويورك . ويحمل الحقائب ، ويوزع البريد ، ويحضر الثلج ، ويوصى على المكوه ، ويقدم لك أى خدمة .. ويقبل منك أن تناديه بأى اسم ..

والفندق الذى كنت أعيش فيه فى نيويورك مزدحم كعادة فنادق نيويورك : الفخم كالمتواضع .. وأكثر الاماكن ازدحاما هو المدخل والبهو . فان الناس يقفون جوار عفشهم ، ولا تعرف اذا كانوا قادمين أو راحلين . والوجوه تتغير .. والحركة لا تنقطع .. كأنك فى محطة سكة حديد .

ولكن جيمى كان الوحيد الذى يتحرك بسرعة خاطفة وسط هذا الزحام .

كان لا يصطدم بأحد ، ولا يرتطم بحقيبة ، وكان يحمل لفة أو يركن شنطة ، أو يزق عجلة ، أو يلفق لنفسه اسما جديدا حسب ما يراه فى الزائر الجديد .

وجيمى يسير راقصا .. أو يرقص سائرا .

والرقص سير الطبيعة فى زنوج امريكا ..

ولا تختلف فى البائس والسعيد .. والمغتبط والتعيس

انهم يتململون ويترنحون ويتهادون ويسرعون ويرتدون .. وهناك نغم خبىء يهدهد رءوسهم .. ويدفع أكتافهم الى الامام ، وأرجلهم الى الوراء ..

وجيمى لم يكن استثناء من بقية شعبه ..

كان يسير راقصا ويرقص سائرا باستخفاف وخفة .

فاذا وقف ضحك .. واذا سار مال .. واذا ضحك دمعت عيناه .

ومن الناس من يسيرون فى الشارع ودموعهم قريبة .. لا تكاد تصطدم بهم صدفة ، أو توقفهم عن السير لحظة .. حتى يبكوا على صدرك .. وانت الغريب !

وجيمى من هؤلاء ..

عيناه مكحلتان بالحزن ، لامعتان بالسرور .. والحزن والبهجة يتراقصان فى نفس الوقت .. كأنهما اعلان يومض ثم ينطفىء .. ليعود الى اللمعان .

وظللت أربعة أيام أتابع جيمى بالنظر .. وأهاجمه بالسؤال ، وأدقق فى شخصيته ، علنى أعرف هذه السعادة دون سبب . وهذا الحزن المركون على جنب .. المستقر فى أعماقه .

وأثارنى استخفافه بنفسه ، وتخففه من أى شىء ، وتنازله عن أسمه بسهولة ..

وأدركت فى النهاية أنه يريد أن يفلت من كل شىء .. من عواطفه .. وموقفه .. ووضعه .. انه يحس انه شىء فى الفندق ، وليس شخصا ..

لا أحد يحس بضرورته .. ولا يحتاج اليه ..

ولذلك فهو يقوم بأى شىء .. لانه لا يختص بشىء محدد ..

وقد أعطاه هذا الاستخفاف خفة غير عادية فى الحركة .. ساعدته فى حياته العملية .. لان يصبح أعظم لا شىء .. فى الفندق .

وساعدته هذه الخفة ان يكون سريع البديهة ..

يتخيل ماذا تريد قبل أن تتكلم ، وتجعله يطيع دون أن تأمر .

وأدركت أن جيمى قرر – ذات يوم – ان يتنازل للناس عن كل شيء .

ولذلك تنازل جيمى عن اسمه .. وهو أول ما يملكه الانسان فى حياته وآخر ما يقبل التنازل عنه ، وصار يقبل أن تقول له أى اسم ..

ولعله فى باطن نفسه يفضل أن تناديه بأى اسم ، على أن تناديه كما ينادون على الخدم .. بصوت مبهم لايخرج عن هذه الحروف :

– بيست ..

أو . يا ! ..

أو أن تناديه باشارة متعجرفة من طرف اللسان !

شارع
الغيظ

كرهت السرعة بعينى ، ورأسى .. ثم كرهتها أخيرا بأنفى . !

وقد كان اعظم كاتب امريكى فى عصره ـ وهو هنرى جيمس ـ يعيش فى باريس كالمخبول الذى تاه فى جمال امرأة . وكان يلعن أمريكا ، لان رأئحتها « آيس كريم ، وموز ، وكوكاكولا » ولو أنه عاش حتى الآن لاكتشف رائحة جديدة تنفذ الى الخياشيم . وهى رائحة غريبة تشبه « النفتالين » ..

وظللت أفر من الاماكن التى ارتادها لأن الرائحة الغريبة كانت توقظ أنفى ، وتثير غيظى ، حتى أدركت فى النهاية انها مسحوق كالدقيق ، يضيفه أصحاب المحلات لغسل وتنظيف الاطباق .. بسرعة ..

ومللت كل هذا الاضطراب والازدحام ، الذى لا أملك فيه شيئا .. وأخذت الرائحة نفسها تظهر لى فى كل مكان أذهب اليه فى نيويورك .. حتى أصبحت كالفكرة الثابتة ، فقد ظهرت لى فى كل طبق يقدمونه ، بل وفى كل

اعلان أراه .. وخشيت أن أتخيل هذه الرائحة فيمن يعبرن الطريق من نساء ! ..
ولعله خوف باطنى من الكيمياء .. !

فبعض الناس يتشاءمون من الاطباء تشاؤما خفيا ، رغم انهم يتشدقون بالعلوم الحديثة ..

ولم أستريح الى رائحة النفتالين ــ رمز السرعة الاكيدة والنظافة المضمونة ــ الا حين دعانى صديقى الزنجى الكاتب لقرية جرينتش .. فى قلب نيويورك ..

والقرية اسم أطلقوه على حى ، شاءوا أن يجعلوه مختلفا تماما عن نيويورك ، مع أنه فى قلب نيويورك ..

والحى يشبه مستعمرة العراة .. لانه فريد فى كل شىء .. فى ميوله وعاداته ..
البيوت قصيرة ، وبيوت نيويورك ناطحات سحاب ..

الشوارع تعرف بالاسماء وشوارع نيويورك بالارقام ..
ايجار الغرف معقول .. وايجار الغرف فى نيويورك جنونى ..
وأحسست أن أهل نيويورك أنشأوا حيا كاملا للتثاؤب .. والراحة ..

فالشوارع واسعة تشبه شوارع المدن الاوربية .. وفيها أشجار .. وهذا وحده ميزة كبيرة .. رغم أن الاشجار ذابلة ، وأعوادها سوداء ، وعروقها صماء ..

وشبان « قرية جرينتش » ملتحون غالبا .. متعبون من السهر والسهاد والضنى لاتفه الاسباب ، أو أغمض العلل .. كأنهم عائدون من الميدان .. أو لم يناموا أربعة أيام أو خمسة .. أغنيتهم المفضلة .. أغنية

مش عايز أنام ..
أو عايز أموت ..

وفتيات الحى – غير الزائرات أو السائحات – يلبسن ثيابا ممزقة ، وجوارب ممزقة .. والجوارب سوداء تشبه جوارب الباليه .. يتركن شعورهن كموضة الحرب الاولى ..

راسمالهن العناد ..

فاذا قالت نيويورك ان الموضة هى الشعر الطويل المرسل . قصوا شعورهن كالفتية الصغار ، واذا هتفت بيوت الازياء بأن الموضة هى الثياب الفضفاضة ، لبسن بنطلونات سوداء ..

جميلات مشمئزات ..

وكان واضحا – بعد جولة – ان الحى يشبه الحى اللاتينى فى باريس . وأن الفتيات نسخة أمريكية من فتيات سان جرمان دى بريه .. ولكن الفتية – بذقونهم – نسخة من رعاة البقر .. بدون بقر ..

وسألت صديقى :

– ولكن ما معنى هذا الاسم .. قرية جرينتش ؟

هل هو صاحب توقيت جرينتش المشهور !

فقال ضاحكا :

– يجوز !

ولم لا ؟

انهم هنا يغمزون ولا يتكلمون .. يغنون ولا يأكلون .. يعيشون على الحب .. أرخص الملاذ !

وقال الصديق :

ـ هل تعرف سر تسمية الكاتب الامريكى « هنرى ميللر » احدى قصصه بهذا الاسم الغريب أيضا :

« مدار السرطان » ..

قلت : تقريبا !

قال :

ـ لقد كتب « هنرى ميللر » يسخر من الامريكيين الذين ظنوا أنه ألف كتابا طبيا ، لان فى اسمه كلمة السرطان !

مع أن الرجل يكتب ـ كما تعلم ـ ذكرياته فى باريس .. كأمريكى غاضب مغضوب عليه .

وهو يقصد ـ فى الغالب ـ أن يقول انه يعيش فى الحياة على خط وهمى مثل مدار السرطان .. ومدار الجدى ..

انه خط فى الوهم .. لا يوجد فى الحقيقة !

وقال الصديق :

ـ ولم لا ؟ لعلهم قصدوا ذلك ..

فالذين بدأوا السكن فى هذا الحى فى بداية القرن .. كانوا أدباء وكتاب مسرح وشعراء .. ومجددين .. وقد هجروا نيويورك ، وجاءوا الى الحى ليعيشوا على سجيتهم ..

ولعلهم قصدوا رمزا ساخرا يقصدون به أنهم يفرون من الزمن ..

لان توقيت جرينتش ، هو التوقيت الوحيد المفترض الذى ليس فى الحقيقة !

انه مجرد افتراض ، ووهم !

قلت : ولكن الحى يكاد يكون صورة مصغرة من الحى اللاتينى ..

فقال : ان الادباء كانوا يعيشون هنا على اعانات من آبائهم ، ثم يلعنونهم ـ خلسة ـ فى أشعارهم ..

قلت :

ـ ولكنى احس ان هناك شبها آخر ..

ـ ألأن الحب هنا مباح .. ؟!

فقلت : لا ..

أن وجه الشبه بينهما أنه ليس فيهما بنك واحد ..

ان المحلات المتجاورة كلها حانات ، ومحلات أزياء ، ومكتبات ومحلات بقالة .. ومأكولات محفوظة ..

ولا يوجد جزارون ، ولا رجال مال ..

وقلت متحمسا : ولكن أميز ما فى القرية ـ بحق ـ هو مكتبات الاسطوانات ..

وحكيت للصديق عن تلك التسجيلات لكثير من المؤلفين والقصاصين والشعراء بأصواتهم

فولكنز . هيمنجواى . اليوت .. ايلوار

وبالطبع أشعار الزنوج ورواياتهم وقصصهم الشعبى .. ثم أغانيهم الشائعة ، ومنها تلك الاغنية الشائعة هذا الشهر :

مش عايز أنام ..
أو عايز أموت ..

وقلت : لقد عثرت على تسجيل لمسرحية من فصل واحد . لعلها أغرب مسرحية من نوعها . وهى من تأليف « جان كوكتو » ولكنها مترجمة .

وهى حوار طويل . بين عاشقة متيمة ، ورجل لا

يهتم .. وابسمها « الجميل لا يعبأ » ..

والحوار مونولوج مستمر .. تلقيه الممثلة . ولا يتكلم فيه الممثل كلمة واحدة .. وقد سجلتها أنجريد برجمان بصوتها .

فقال الصديق :

ـ أنها خير من يمثل العاشـــقة التى تهلوس .. لانها أعرق محبة بلا أمل !

قلت :

ـ المسرحية كلها كلام المرأة .. وجان كوكتو هو خير من يصور هذه الحالة ، لأنه يكره المرأة بخبث وذكاء ..

والجديد فى المسرحية انها ذات فصل واحد . تقطعه الممثلة فى نفس واحد ..

انها تصرخ وتهدد وتتوعد وتتقرب وتعتذر ثم تشتم ثم تهدد وتبكى .. ثم تشتعل حتى الهياج

تهدد بالانتحار ، وتهدد بأن لها حبيبا آخر ، ثم تتوعد .. ثم تعود تستحلفه بالذكريات ..

تتحدث فى التليفون ، ثم تمزق الجريدة التى يقـرأ فيها الرجل ، ثم تهدد بالقاء نفسها من النافذة ..

ولكن أين هو ؟

انها تريد أن تمسك الماء .. والجميل لا يعبأ ..

. . . .

وقال لى الصديق الزنجى ، وهو يؤلف كتـــابا عن الادب الزنجى ان قرية جـــــرينتش كانت أول مكان يستضيف أدباء الزنوج .. وينشر لهم قصصهم ..

فقد ظهرت فيها مجلات جـــديدة . وماتت لأنها لا تتجدد .. وظهرت دعوات عـــديدة للانتبـــاه الى أدب

الزنوج وشعرهم وموسيقاهم . وجميع أدباء أمريكا ـ دون استثناء ـ أو حاموا حوله .. عاشوا فى هذا الحي..

وقال الصديق :

ـ لقد كان ريتشارد رايت يعيش على مسيرة أمتار من هذا الشارع ..

وقصة ريتشارد رايت قصة مليئة بالتعاسة والموهبة وفى المثل الفرنسي يقولون :

ـ الموهبة كالجريمة ، لا يمكن أن تختفى !

وكان ريتشارد رايت يؤمن بأن موهبته جريمة لا يمكن ان تختفى ..

فقد كان أصغر أخوته التسعة .. وكان أبوه فقيرا وشرسا .. عاش فى ضنك . كفلته عمته .. واشتغل في مزارع القطن

وهاجر مع افواج من الزنوج الى الشمال .. وبدأ يكتب .. واكتشف موهبة شاعرية متدفقة .. وقدرة رائعة على التحليل والوصف ..

قلت :

ـ ولكن الذى يحيرنى حقا هو البطل عند هذا الكاتب .. انه دائما شاب فى سن المراهقة ..

ـ أن أكثر الادباء الامريكيين كتبوا عن هذه السن بالذات. ساروريان الارمنى الاصل كتب عن بطل صبى يافع

وسن المراهقة هو السن الذى يحلم فيه الكاتب ويحلم فيه القارىء ..

وسن المراهقة هو سن الامل والتوقع ..

وأمريكا هي بلاد الآمال وبلاد الذين ينتظرون دورهم ! أو هكذا يقولون فيما بينهم .. أو هذه هي الصورة التى صوروها بها .. فهى بلاد غرباء ولاجئين ووافدين ونازحين .. عبروا البحار وليس على أجسادهم سوى بعض الثياب .. وليس فى جيوبهم سوى بعض المال ، أو خطابات التوصية .. ولكن صدورهم بها آمال كبيرة وأحلام وتوقعات ..

ولذلك فأمريكا هى بلاد النجاح العظيم جـدا ، أو اليأس العظيم جدا !

وقاع اليأس فيها ليس له قرار ..

والزنوج يعيشون فى قاع القاع .. ويقـول المثل المشهور بينهم ، وكأنهم يتحدونه ، ولا يناقشـونه ، ويستسلمون له :

ــ الزنجى آخر من يلتحق بوظيفته ، وأول من يطردمنها!

. . . .

وريتشارد رايت عقدته هى الخوف من الموت ..

واسرع موت فى أمريكا بمسدس ، وأرخص ميت هـو الزنجى ..

بل انهم ــ ويا للغرابة ــ يتسامحون حين يقتل الزنجى زنجيا آخر .. ويحكمون على القاتل بأخف الاحكام ..

وكأنهم بذلك يوجهون للزنوج دعوة الى القتل ! ..

لانهم يريدون أن تختنق الاخلاق والقيم عند الزنوج .. فيصبحوا مجرد طغمة من السفلة والاشرار ..

ولذلك كان ريتشارد رايت يكتب عن ادجار الان بو الشاعر الامريكى والقصاص الذى أخترع قصصـا

خيالية مليئة بالرعب .

قصص كلها خيال مرعب .. التصور « مسكونة » والبيوت أطلال .. والجماجم تتكلم .. والموتى فى ريعان الشباب . والعمر طائر كالغراب ! .. والحياة رعب مقيم ، وسجن يزهق الروح ، ويرهق البدن .. والخيال جامح ملىء بالمخاوف ، كالبحر الملىء بالصدف يغطى وجه الحقيقة كما يغطى أى بحر أى شط . . فتختفى الارض ، ويغوص القارىء مع الكاتب فى قاع البحر ، الذى ليس له قرار !

. . . .

وكانت القرية قد بدأت تنام .. وبدأت المصابيح تذوى كأنها شمعة .. وقد اختلط ضوء الفجر بضوء المصابيح .. كلاهما لا ينطفىء . كأنما فى عناد متبادل !

وقال لى الصديق :

ــ الغريب أن ريتشارد رايت حين كان يسكن فى هذه القرية ، كان لا يكتب الا فى مثل هذه الساعة .. حين يختلط ضوء الفجر بضوء المصابيح فى عناد غريب . وعندما تصبح القرية صامتة هامدة ، كأنها جثة تنتظر قاتلها .

وكان ريتشارد يحب أدجار آلان بو .. لكنه يضيق به ريهزأ منه ، لانه كان يقول :

ــ لو عاش ادجار آلان بو بين الزنوج لما احتاج الى كل هذا الخيال .. ولما أحتاج الى أختراع الرعب ..

فقد كان يكفيه ان يصف حياتنا ، فتفوق الحقيقة شطط الخيال .. لان أسرع موت .. بالمسدس . . وارخص ميت هو الزنجى .. ومدينتنا مدينة تؤمن بالسرعة والتجارة

وودعت صديقى الكاتب ورائحة النفتالين تعود الى أنفى

رجال تقريباً



. . .

. .

عشت أياما فى ذلك الحى الغريب الذى أصبح كعبة المتأدبين ، ورنين كلمة القرية يبهجنى .. لاننى فى قرية حقيقية داخل نيويورك ..

واكتشفت فى الاسماء التى يختارونها للمحلات بهجة وتخففا وطيف فكاهة ..

فبعض المحلات على اسم بعض الاقاصيص التى ألفها أوجين أونيل الكاتب المسرحى ، وقد ألفها فى قرية جرينتش ، ومن الطف محلاتهم محل « المصباح الغازى » أو « ضوء الغاز » .. والامريكيون لا يزالون ، على انبهارهم بالاضاءة الكهربائية والميكانيكا ، يحنون الى ضوء الغاز وضوء الشمع . ففى أعماقهم ريفيون غلاظ الجسم ، رقاق القلب . وآية الاحتفال عندهم ، أن يجتمعوا حول مائدة تضيئها شموع ذابلة واهنة ، فهم اعنف رومانتكيين ظهروا فى العالم حتى الان ، ولعلهم آخر الرومانتيكيين فى العصر الحديث ..

فقد سبقهم رومانتيكيون فى روسيا وفرنسا وانجلترا ... وماتوا ، وانقضى زمانهم .. أو كاد ينتهى تماما ..

ومن العسير أن تجد فى روسيا الآن رومانتيكيا مثل القصاص تورجنيف ، أو فى انجلترا مثل الشاعر شيلى .. ولكن الرومانتيكية فى أمريكا لا زال لها صولجان كبير وقد تكون السينما هى سر هذه المعجزة ! ..

ولعل السر أيضا فى أن معرفة الشعوب الاخرى تتطلب نوعا من الهجرة النفسية والحنين الى البعيد ، وقد سبقت أوربا الى ذلك السفر فى الخيال .. حين كتب بودلير عن سحر الشرق وعطوره .. بل لقد كان بودلير يعشق جان دوفال ، وهى فتاة زنجية لعلها من جزر جواديلوب .. فى أعماق المحيط الهادى ..

وكانت جان دوفال تمثل لبودلير العطر والخيال ، والسفر الى بعيد فى رحلة من الشوق الماجن .

وبعدها كان رامبو يحلم أيضا بالصومال ، وقد هاجر اليه وقتا ، وكتب فيه أروع أشعاره التى يتفتح فيها قلب الشاعر على اللون ، وعلاقة الالوان بالانغام ..

والشعر لون يتلى ويتلوى من الالم ..

وهناك أيضا الرسام جوجان ،الذى هاجر الى المحيط الهادى ليرسم غاباته وحرارته ودخانه .. وأجسامه العارية الدافئة ! ..

ولكن الرومانتيكيين فى أوروبا مهدوا ـ بقلوبهم وخيالهم وشوقهم ـ الى معرفة الشرق .. ومعرفة الاخرين ..

وفى أمريكا مسحة من الرومانتيكية العجيبة ، وهى أحيانا رومانتيكية مريضة ، فهى تبيع ابتسامة النجوم للمتفرجين ، وأحيانا تبيع سيقانهم الملونة على شاشات

بيضاء ، وهذه القصص التى يصورون فيها اليـــابان جنة خضراء فيحاء ، أو يصورون ألف ليلة وليـــلة بعين غريبة هى عين الرومانتيـــكى ، الذى يزوق كل شىء ، ويزركش كل بيت ، ويلمع كل صفحة .. حتى لقـــد أصبح والت ديزنى بطلا شـــعبيا عنـــدهم ، لانه باهر الريشة ، يسيل الحنـــان فى ألوانه والخيـــال يرق فى لوحاته .. المتحركة .

وظللت أسأل نفسي ما هو السر وراء هذه القـــرية ، ولماذا تبدو للجميع خفيفة الظل ..

وأدركت فى النهاية أن سر ظرف هذه القرية هـــو قلة الاضاءة ..

فالقرية ـ على اتساعها ـ اضاءتها ضـــــعيفة . وفوانيسها قديمة بعضها منقول نقلا من القرن الثـــامن عشر ، بل ويشبه مصابيح لندن التى كانت تجـــرى تحتها قصص شارلز ديكنز !

وقلة الاضاءة مرتبطة بهذا المزاج الرومانتيــــــكى الغريب .. لان الضوء الغامر يحاصر النفس ، ويؤذى العين ، ويفتح الحواس من شدة الانتباه .. ولـــــكن الضوء الخافت يثير الخيال ، والهمس واللمس .. أو هكذا شاء الامريكيون فى قريتهم الغريبة ..

. . . .

وقال لى الصديق الزنجى الذى يجمع مقـــالات عن كتاب زنوج .. وهو شاب هادىء كروح النعنـــــاع ، لا يتحرك كثيرا كدأب أهل بلده ، ولكنه يتقلب ويمـــوج من الداخل ، ويظهر ذلك فى ابتسامته الغريبة اللامعة ..

وقد أثارتنى ابتسامته ، لاننى لاحظت أن كل الزنوج يبتسمون ابتسامة لامعة ، ولعل ذلك لان أسنانهم بيضاء ناصعة ، وعيونهم سوداء دافئة وهذا التناقض يلقى عليهم لونا من الاسى المبتسم

قال لى الصديق :

ـ ان شعراءنا الرومانتيكيين أعظم شعراء رومانتيكيين فى العالم ..

فسألته :

ـ وهل هم كثيرون ؟ ..

ـ منذ خمسين سنة على الاقل ، والشعر الزنجى يفيض كالنهر .. وفى هذه القرية بالذات ظهر أعظم شعرائنا ، واكثرهم جراة .. وهم اول من ارسلوا شعرهم ، وتخففوا من الاوزان التقليدية ..

قلت له :

ـ ولماذا تركوا الشعر التقليدى وقوالبه المعهودة ..

فقال :

ـ لعله القلق ..

ان القلق يفيض على القالب ، ويمزق الشكل ، القلق لا ينسجم مع القوالب الجامدة ، ولابد أن يفيض على حافة القالب الشعرى .. كما يفيض السائل على حافة الاناء ..

وقال الصديق ، وهو يهمس مبتسما فى غير مجال ، وكأنه يسر لى سرا :

ـ شعراء الزنوج أروع شعراء ، لان عندهم أكبر مأساة معاصرة ..

واغلب شعرهم رومانتيكى ، لان الـزنجى يحس فى بلاده بالغربة ..

واسمع هذه القصيدة التى قال الشاعر فيها :

لماذا تبحث وجوهنا السوداء فى السماء ..

هل نبحث عن شيء ..

هل فقدنا غاليا ، ونحن نجوب الارض الغريبة ..

وانظر الى نفس العناوين التى كان يختارها الشعراء ــ خطابات وجدت جوار منتحر ..

ان هذه الخطابات من الشعر كتبها صاحبها فى قرية جرينتش أيام الشباب ، حين كان الشعراء الشبـــبان يشربون النبيذ فى الجرادل ..

واخذ الشاب المؤلف يدق على المائدة بأصبعه بقلق .. حتى انسجمت اصابعه ، وهو يقول لى قصـــيدة أخرى .. خيل لى انها على وزن « مال واحتجب .. وادعى الغضب » .. لانه كاد ينقر نقرة الرومبا ..

مات وانتهى ..
عمره النضر ..
مات وانتهى ..
عمره ذهب !

وقال الصديق ، ليس معنى ذلك ان الزنوج لم يملئوا قصائدهم ابتسامات وطربا وفكاهة ..

فانظر الى هذه القصيدة التى تبدأ :

ــ وسأوقد شمعتى لكم من الجانبين علها تضيء .. علها تضيء ..

قلت للصديق الزنجى ؟
ــ ولكن بماذا يحلم الشاعر الزنجى ؟
فقال :
ــ أحيانا بالعودة الى أفريقيا .. قبل ان ينتقــــل الى أمريكا عبدا مكبلا بالحديد فى سفينة شراعية ثم فلاحا فى أرض لايملكها ..

وهناك شاعرة كانت تكتب عن افريقيا · كمــــا تتخيلها ، وتتخيل افريقيا مجرد طريقة فى السير ..
والقصيدة اسمها : الى فتاة زنجية ..
وفيها :

ان شيئا يشبه الملــكات القديمات
يهتز فى مشيتك

ان الشاعرة تتخيل الحرية مجرد كبرياء · ومجرد مشية فى خيلاء .. ونفس المؤلفة كتبت كثيرا عن الشخصيات الزنجية الشعبية مثل « القطن ملك » أو « ســــام سميلى » أو « سام البسام الضحوك » ..
وخيل الى ــ وهو يتكلم عن شخصياتهم الشــــعبية أنه يحدثنى عن شخصياتنا الشـــــعبية التى تعيش على النكتة المستخفة .. والتى تشــــــبه « أبو على عامل أُرتست » .. فسام يضحك لاقـــل سبب .. مع أن الضحك بلا سبب .. قلة أدب !!
ونفس هذه الحكمة زنجية أيضا ..
ولكن الرومانتيكية فى شعر الزنوج كانت عنيفــــة ساخطة أيضا ..
فمن شعرائهم من تحدث عن سخطه على هــــذه الملايين التى « لا تقول الا نعم .. » وهو يعلن فى مطلع ملحمته ــ لان قصيدته طويلة :

لعنة الله على جيل الخدم
والحشم وعمال المصاعد وعمال
العنابر وزراع القطن وكلهم
سود وكلهم قال نعم !!

لعنة الله على كل من قال نعم !

وكثيرون من شعراء الزنوج كانوا يدعون الى الثورة والتمرد .

« أنت يا سوزى ، هزى ذلك
الطفل فى مهده ..
واذهبى يا حنا ، أحضرى
العشاء ..
وأنت يا جيم ،أحرث الارض..
وأنت يا سامبو .. اذهب الى
جهنم ..
فقد أغرقتم الارض كلها فى
العرق »

وشعراء الزنوج ملأوا أشعارهم حنينا الى الهجرة وشوقا الى البعد .. وكأن فى أعماق الزنوج تلك الرومانتيكية التى قذفت بشيلى الى اليونان .. وبرامبو الى الصومال ، وجوجان الى المحيط الهادى .. وقذفت بهم الى خارج أمريكا ..

وقلت لصديقى الكاتب ..

ـ أن الرومانتيكية هجرة فى الخيال ، وخروج عن حدود النفس الى آفاق بعيدة .

وفى كل انسان هذا الاحساس الرومانتيـــكى الذى يربط المجنون بضوء القمر ، ويربط البحر بالصخرة .
لكنه عند الرومانتيكيين يعنف ويشتد ..

وسألنى :

ــ هل قرأت قصة « الرجل الخفى » للكاتب الزنجى رالف اليسون ؟

قلت : لا ..

قال : ان اليسون كاتب شاب ظهر أخيرا ..

وهو يكتب عن هارلم .. وحى الزنوج ، ونيويورك ، وحياة الملونين والبيض .

ــ ولماذا اختار اسم « الرجل الخفى » . لقد حسبتها قصة تشبه القصص البوليسية الانجليزية .

فقال :

ــ لا .. لقد تصورها القراء أول الامر كذلك ، ولكنهم اكتشفوا أنه يرمز الى الرجل الاسود .

وهو يقصد ان الرجل الاسود هنا رجـــل خفى .. ما دام الناس يلقون عليه النظر ، وكأنهم لا يرونه ..

انه قمة الاحساس بالانكار .. والنفى .. والالغاء .. لان الرجل الخفى مهاجر وموجود ومواطن منفى ، انك تحكم عليه بالانكار رغم وجوده ، والاختفاء رغم ظهوره .. ورغم انه يتنفس ويتكلم ويمشى على قدمين .

والمؤلف يقصد أن يقول :

ــ اننا نعيش تقريبا .. ونموت تقريبا .. ورجال تقريبا .. لاننا من دخان وألم وتعب . قبـــل أن نكون لحما ودما .. اننا « تقريبا » ..

وسكت محدثى الوديع .. وابتسم .. فأضاءت أسنانه البيضاء وجهه ، وألقت عيونه السوداء العميقة ظلا من الاسى الخافت .. فبدالى كل شيء كأنه مصباح خافت الضوء .. يتماوج فيه الظل والنور ، فلا تعرف أين نوره وأين ظله .. وكأنه رجل خفى لا أسمع منه الا صوتا هامسا يشكو .

يسقط المجد

باب مسرح الجيب في الشارع السابع في نيويورك باب ضيق لا يدل شيء على انه باب مسرح . . تصعد الى الصالة على سلم يشبه سلم الحريق .

شباك التذاكر على « البسطة » . التذاكر غالية . الحيطان سوداء فاحمة أو بيضاء ناصعة . بها ذوق وتبسيط بلا مهارة ، ثم تصل الى الصالة التى تشبه الردهة الواسعة . مدت فيها الكراسى المريحة القليلة . والمسرح لا توجد به ستارة ، لان شعار المسرح :

ـ ضم الجمهور للممثلين . .
الجمهور من البيض . والممثلون من السود .

والمسرحية عن الزنوج ، ولذلك فهى مأساة المتفرجين والممثلين معا .

ولكنها آية في الغرابة . .
مقززة ، مرعبة ، مخيفة ، تنتفض من الانفعال والصراخ ، والخبث .

كتبها الكاتب الفرنسى « جان جينيه » الذى تبناه جان بول سارتر ، وكتب عنه كتابا ضخما اسمه

« القديس الشيطان » ..

وجان جينيه قديس شيطان ، وشاعر كاتب ..

احتل المكان الذى كان يحتله البير كامو ، منذ أعوام..

قالوا عنه فى باريس انه لص مجرم وأفاق متعطش للدم ، وقال عنه سارتر .. وماذا يهم .

يكفيه انه شاعر . لانه هو اللص الوحيد الذى كتب اعترافاته فجاءت آية فى الادب والانفعال ..

وجان جينيه أديب منتقم ..

تخصص فى أدب الصدمة ، أو أخراج القراء بالصدمات ، يحكى لك كل ما يتهم أوروبا بالفضائل المزيفة ، وينزع عن وجهها الاصباغ الزائفة .

وقد أجاد جان جينيه الكتابة عن الغيظ .. لانه نفسه غاضب مفتاظ لا يرضيه شىء فى هذه الحضارة الهائلة ، اذا سألوه :

ـ ما الذى يغضبك ؟ ..

قال : أى شىء وكل شىء ..

ومسرحيات جان جينيه تجتاح كل مسارح أوروبا .. وأمريكا .. مع انه كاتب يجافى الادب ، ويشذ عن الذوق ، ويبصق فى وجوه متفرجيه . أو تصل انفعالاته الى حد الصرع .

وجينيه يبحث عن الغيظ فى أى مكان .. ويكيد للسادة كيدا عظيما ، وقد وجد فى مأساة الزنوج بأمريكا « فرصة » للغيظ .. فكتب مسرحيته الشاعرية الغريبة ..

وتلقف الزنوج فى أمريكا مسرحيته ! ..

وقال جينيه ان المسرحية هزلية ، للبهلوانات فقط ..

كتبها ليمثلها ممثلون زنجيون على جمهور من البيض.

وقد سرح خاطرى ، وانا أشهد المسرحية .. لقد رايت شيئا يشبه ذلك من قبل !

وتذكرت هاملت لشكسبير ..

ففي هاملت مسرحية صغيرة داخل المسرحية الكبيرة .

وهذه المسرحية الصغيرة تبدأ بطائفة من البهلوانات يدخلون قصر الملك .. يرقصون ويقفزون . صبغوا وجوههم بالاصباغ .. حتى لا تكشف عن عواطفهم الحقيقية . ينطقون بالكلام وكأنهم لم يقصدوه . ويضحكون أو يبكون .. فيختلط الضحك والبكاء والجد بالهزل .. ولكنهم في نفس الوقت يشيرون من بعيد الى مأساة هاملت ، وعلاقة أمه بعمه .

بالتلويح لا التصريح ..

وبالفكاهة بدلا من الجد ، يغمزون ويلمزون .. ولكن الغمز يثير مكامن الوجيعة .. فكأنك تضع سكينا فى جرح .. أو دبوسا فى ورم أليم ..

والبهلوانات أو البهاليل يتكلمون عن المأساة بأسلوب عبيط ، والفرق ـ كما يقولون ـ بين المأساة المفجعة والملهاة المضحكة خيط رفيع ..

وجينيه أخذ هذه الفكرة ، أغلب الظن من شكسبير..

ونقلها الى مأساة الزنوج .. أراد أن يرسم مأساة الزنوج للجمهور الابيض . كما رسم البهلوانات مأساة هاملت للملك عند شكسبير بطريق الغمز الجارح ..

فلماذا لا يجعل المتفرجين البيض يتفرجون على جرائمهم وأخلاقهم ..

ولماذا لا يشتمهم .. وكأنه تمثيل فى تمثيل ! وكأن الامر بيد البهاليل ..

ولماذا لا يجرحهم ويحرجهم ..

ولذلك قلب جان جينيه الآية ..

فجعل مسرحيته تدور حول محاكمة زنجى قتل سيدة بيضاء ..

وهو يقصد فى الحقيقة أن يثير انفعال المتفرجين البيض ، لان الذى يحدث فى الحق ، هو أن البيض هم الذين يقتلون الزنوج ويمثلون بأجسامهم ، ويعلقونهم فوق أعمدة الكهرباء !

فاذا صرخ القاتل الاسود فى ضحيته : يا للذة القتل ! انفطر قلب المتفرج الابيض ، لانه سمع مثل هذا الكلام من رجل أبيض يقول :

ــ يا للذة قتل الزنوج !

ولذلك أعلن جان جينيه أن المسرحية هزلية يمثلها بهلوانات وهى فى الحقيقة مأساة مرعبة ! لانها تلوح دون ان تصرخ بمأساة الزنوج فى الحقيقة ..

ولذلك ، ألغى المؤلف الستار بين الجمهور والممثلين ..

وبدأت المسرحية بأن يدخل الممثلون ليحدثوا الجمهور الابيض ، ويقدموا أنفسهم ..

وفى منتصف الفصل الاول ، ينتقى الممثلون متفرجا من البيض ، يطلبون منه أن ينتقل من صفوف المتفرجين الى المسرح ، ليقدموا له وردة فى أدب وحفاوة .. ثم

ينهالون عليه ذما وشتيمة .. ويعود المتفرج الابيض الى مسرح المتفرجين قبل أن تدور معـــركة ، و « تبوظ » المسرحية !

ودخل أول الامر زنوج نحاف . يلبســـون ملابس السهرة السوداء ، امتشق قوامهم .. وطالت رقابهم.. وكأنهم فى حفلة ساهرة « ملوكية » ..

قدموا انفسهم .. وانحنوا فى تكريم ملحوظ ..

ثم دخل فريق آخر فى جوف المسرح ، خمســـة قضاة يلبسون ثياب السهرة المنشاة ، وسيدة فاضلة تلبس فستان سهرة مزركشا وعلى وجوههم جميعـــا أقنعة مطلية .. لا يتكلمون ولكنهم يعتلون منصـــة عالية ، ويتخذون سمت القضاة ..

الذين يتكلمون هم الجانى الذى قتل .والشهود الذين شاهدوه ..

والجثة البيضاء يضعونها فوق مائدة .. ولكنها جثة فى الخيال .. ولذلك يرمزون لها بكفن أبيض ممـــدود على المائدة ..

كفن مغطى بالزهور الصناعية ..

وبدأت المحاكمة بدقات على المنصة ..

ويسأل القضاة :

ـ لماذا قتلتها أيها اللعين ؟ ..

فيقول القاتل :

ـ قتلتها لانى أحبها ..

وقال : أنا متوحش ، أبتهج للقتل . فأنا آكل لحم .. أسود .. متوحش ، همجى .. شرير .

وشهد شاهد بأنه قتلها . وهي تنزل من دارها ..

وانه قتلها ، وليس لها جريرة ..

انه سفاح مهووس .. وهو لم يحبهـــا .. لانه لم يعرفها انه شرير ، لانه يقتل ، ويكذب .. فهو لم يحبها لانه لم يلتق بها .. لقد قتلها لمجرد أنها بيضاء .. مجرد صدفة !

أهذا سبب للقتل ..

مجرد أن يكون حزنك تحت جلدك .. فيصـــفر لونك من الكمد ، أو يكون حــزنك في قلبك فحما .. فتصبح أسود اللون .. يعتبر هذا سببا للقتل ..

اى كلام هذا الذى يقوله المتهم ..

لقد قتل بلا سبب .. لمجرد اللون .. وهــو مجرد صدفة .. فالناس يولدون ولا يختـــارون ألوانهم .. فكيف يصبح اللون « الابيض » مبررا للجريمة ..

ثم تكلم أحد الممثلين عن عقدة السود .. واحساسهم بالضياع .. احساس الكآبة المخنوقة ، والاشـــفاق على النفس .. والحزن المتكبر ..

احساس المشفق أن يكون نصيب كل انسان حسب لونه .

ولذلك صرخ الممثل :

ـ أنا أكره القمر لانه أبيض ..

وأكره اللبن .. لانه أبيض ..

وأكره الماء والنجوم .. والورق .. والاســنان . . وكل ما هو أبيض .. حتى بياض العين ..

ولذلك قتلت هذه البيضاء اللعينة .. !

ان لبنى أسود .. وقمرى أسود .. وصـــبحى أسود ..

ويا لسواد الليل اللعين !

فالليل هو وطننا الذى يقبل ـ وياللعار ـ أن يأوى بين جناحيه العظيمين السود والبيض والصفر والحمر معا ..

ثم يصرخ مشفقا غير معتذر :

ـ لقد أحرجنى الليل ، وهو من بنى وطنى !

ولكن المحاكمة تستمر .. فلا بد للقاتل من قصاص .. ولابد للجريمة من نهاية ..

ويبحث القضاة . هل كان هذا القاتل يحب القتيـلة فعلا .

ويكتشفون كذبه .. فهو مرة يقول أنه قتلهـا وهى تجلس الى ماكينة خياطة .. وتارة يقول انه قتلها عندما كانت تسير متأبطة ذراع حبيبهـا ! وهو يروى رواية وسرعان ما ينقضها ..

انه كاذب ..

لقد قتلها بالصدفة ..

وهذه أبشع جناية ، وانكى جريمة ..

أن يقتلها لمجرد أن القمر أبيض ، أو اللبن أبيض ..

انه ينتقم من القمر واللبن .. ومن بياض العيون ..

ويحكمون عليه بالاعدام .. لا لانه قتل .. ولـكن لانه كذب ، وادعى أنه كان يحبها ..

فياليته أحبها ثم قتلها .. قتل المحب الغيور ..

بل ليته قتلها لمجرد التسلية .. لمجرد قتل الوقت.. قتل العابث الملول .

ولكن يا للعار .. ان أشد المجرمين قسوة يقشعر بدنه من هذه الجريمة التى ليس لها سبب .. سوى بياض اللبن !

....

وماجت الصالة بالانفعال ، والصرخات المتشنجة تهز الحاضرين .. وحين تم اعدام القاتل .. انحنى الممثلون بأدب واحتفاء .. واعتذروا للسادة المتفرجين عن هذه التمثيلية الوقحة .. وعن شتم السود للبيض .. وقالوا لهم نأسف لان التمثيل حبك ، وللخيال أحيانا عذر ، وحبكة ..

وخرج المتفرجون لاول مرة من مسرحية ، وقد اشتروا تذكرة ليحسوا بالاسف ..

وقال لي صديق أمريكى صحفى كاتب ، ونحن ننزل من مسرح الجيب :

ـ ان جينيه الفرنسى لم يعبر تماما عن مأساة الزنوج ! انه غريب عنهم .. وهو لا يعبر بصدق الا عن مأساته الخاصة ..

انه يبحث عن اى غيظ فى اى بلد ..

ان المأساة ليست كما صورها جان جينيه ..

فقلت :

ـ ولكن المأساة نفسها صورت فى قصص الكاتب الامريكى الزنجى ريتشارد رايت ..

لقد تحدث في قصته « أمعاء السمكة » التى كتبها

قبل أن يموت ، عن الخوف والرعب يصيب الزنوج فى الجنوب ، حين يهتاج البيض ويخرجون فى المـــدينة يحملون المشاعل يبحثون عن أى أسود .. ليقتلوه ..

أليس القتل هنا لمجرد اللون هو أفظع الجرائم ..

فقال الصديق ملحا :

ـ ولكن هناك كتابا من الزنوج ظهروا بعد ريتشارد رايت مثل بالدوين .. وهم يكتبون عن الزنوج من زاوية غير عنصرية ..

من زاوية انسانية ..

فريتشارد رايت هاجر الى باريس ولم يعش بين الزنوج منذ نهاية الحرب ..

فقلت :

ـ ولكنه يتذكر طفولته .. ويكتبها !

ولم أشأ ان أكثر الكلام ، فقد لاحظت أن صـــديقى ـ وهو أمريكى شاب صادق القلب ـ كان يحس بالحرج .. وكانت المسرحية لا تزال تهزه كما كانت تهزنى .. وان كان احساسنا يختلف ..

فلقد أفرجت عما كنت أحس به من ضيق ..

ولكنها أوقعته فى حرج ، وضيق وكآبة ..

فأردت ان أغير الحديث ، وقلت ، ولكن :

ـ أين هذا الكاتب الجديد بالدوين ..

فقال :

ـ لقد أصبح من أثرياء الكتاب المعاصرين عندنا .. ولكنه لا يظهر فى المجتمعات ..

فسألته :

ـ لماذا ؟

فقال الصديق ضاحكا :

ـ لعله يحس بالحرج أيضا .. لانه كتب آلام الزنوج وباع هذه الالام فى كتب وأدب .. واشتراها منه جمهور القراء ولا يزال يحس بالحرج والألم .. لان آلام الزنوج صنعت له مجدا وشهرة .. وقد بقى أهله وأبناء عمومته يعيشون فى الشقاء والتعاسة ..

وتفرع الحديث فى ألوان عديدة .. وكان الليل قد انتصف وافترقت عن الصديق .. وسرت فى الشارع السابع مبتعدا عن مسرح الجيب .. وفى ذهنى صورة اتخيلها للكاتب الذى يشـــتهر فى المجتمع ، لانه باع له الآلام ، والدموع ، وبقيت بعده الالام والدموع ..

وتوقفت لحظة ، وكأننى لا زلت أحدث صديقى لاقول :

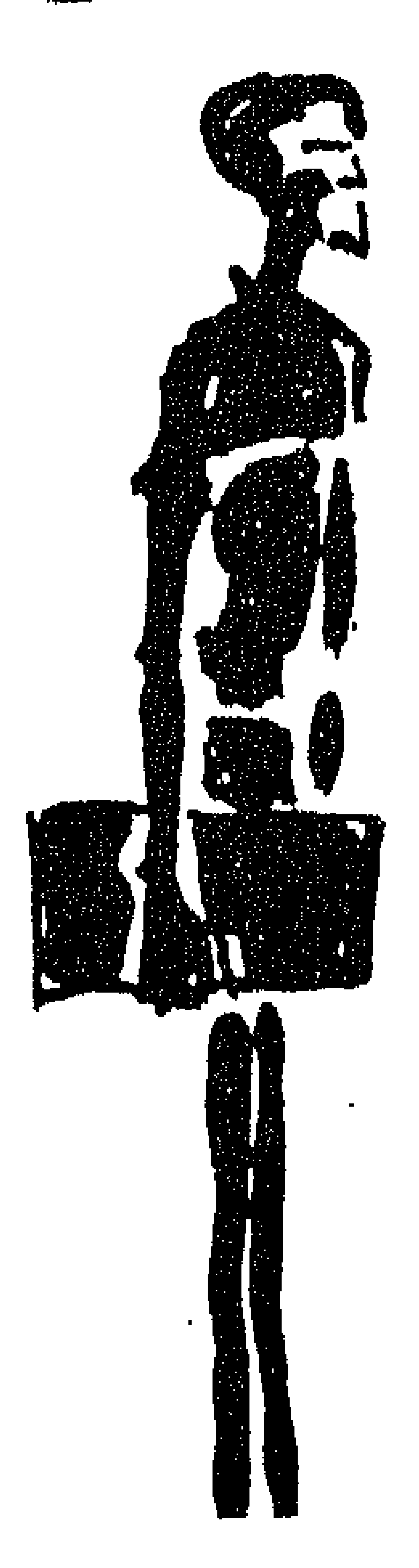
ـ يعتذر للمجد ..

وقلت لنفسى ، وكأننى أحاور نفسى :

ـ لا .. لا ..

بل يسقط المجد ..

لا ..
لا أستطيع



قلت له : ــ ولكنك تقول ان مشكلة الزنوج تحل ببطء شديد

قال : ــ ولكن هذه حياتنا !

قلت : ــ انك تقول ان الاختـــلاط بين السود والبيض ممنوع فى الجنوب ، مكروه فى الشمال ••

وكل عام تقبل تلميـــذتان ــ بالكاد ــ فى المدارس •• أليس هذا تقدما ؟

قال : انه تقدم بلا شك !

قلت : ــ لو فرضنا أنكم استمررتم بهذه السرعة أو بذلك البطء ، ففى أى عام ستحل المشكلة •• عام ٢٠٠٠ ؟

وقال الاستاذ وارد المحـــامى الزنجى ، وهو يتحسس أصابعه بأصابعه ، والابتسامة على شفتيه :

ــ لا تحدثنى عن السنين ••

قلت ملحا ، وأنا لا أقصد أن أجرح شعوره •• ولكننى صممت على أن أفهم منه ، لانه محام مشهور ، ورئيس لجنة الدفاع عن الحقوق المدنية فى ولاية انديانا ، وهى لجنـــة للدفاع عن مساواة الزنوج فى الانتخاب والتعلم ، والاكل فى المطاعم ، والنوم فى الفنادق :

ـ ولكن الحساب واضح !

اذا ظلت المدارس تقبل ٢٪ من تلاميذ الزنوج كل عام ، فان عام ٢٠٠٠ هو العام المرتقب لحل المشكلة ..

وتكهرب الجو ..

وبدأ القلق على أصابعه التى كان يفركها بشدة ، ولم يبد على عينيه ، لانه كان يغطى عينيه بنظارة سوداء ..
فهو محام ضرير !
كان قد أقبل مع شابين من الزنوج يقودانه ، وكانا يلبسان النظارات الطبية ، والملابس الغامقة . ولا يتكلمان ، وكانا يبدوان كالمريدين أو التابعين ، ولعلهما أعضاء فى نفس اللجنة ..

بدا عليهما القلق ، وأحسست انهما يتقدمان بصدريهما الى الامام ، وكأنهما يوشكان أن يتدخلا فى الحديث .. لولا أن المحامى وارد قال مرة أخرى :

ـ لا تسألنى عن سرعة التقدم ..
المهم ان هناك شيئا ..

قلت للاستاذ وارد ، كأننى أعلل لهجتى أو أفسر الحاحى :
ـ لقد حكى لى صديق جاء من ولاية « الاباما » فى الجنوب هذه القصة ..

لقد كان يقف فى طابور طويل ينتظر الاتوبيس وكان يسبقه خمسة رجال من البيض ، خامسهم رجل أسود !. وكان هو السادس ! ويليه فى الصف رجال ونساء عديدون بينهم بعض الزنوج ..

وحين وقف الاوتوبيس جوار الطابور ، على المحطة ، صاح السائق بصوت عال :

ـ ستة من البيض فقط .

ومعنى ذلك أن الزنجى الذى جاء ووقف فى الطابور لن يسمح له بالصعود ..

فهل تصدق هذه القصة ؟

قال الاستاذ وارد :

ـ هذا شيء طبيعى فى الجنوب ! ولكن الجنوب يتطور الآن !

وساد الصمت من جديد ، وكأننا قد يئسنا من الاتفاق على أمر بديهى ..

ودارت الافكار فى رءوسنا ، ونحن لا نتكلم ، حتى قال :

ـ انك لا تعرف شيئا عن حياتنا فيما مضى !

لقد كنا مثلا نكافح فى المدارس والملاعب العامة حتى يسمح لنا بأن نستحم فى حمام السباحة !

ومع ذلك ، فقد كانوا لا يسمحون للزنوج بالاستحمام الا فى آخر يوم ، وقبل تفريغ الحمام من الماء .. أى بعد أن يشبع البيض استحماما وسباحة ..

وتبادل الشابان اللذان يجلسان مع المحامى وارد النظر !

ولم تفارق وارد ابتسامته الذكية المتفائلة ، وهو يقول :

ـ هل تعلم أن الزنجى فى هذه الولاية ، كان لايستطيع منذ عشر سنوات أن يخرج من بيته ليشرب فنجان قهوة ، فلو خرج ضربه البيض .

ثم قال : وكانت المحاكم تحاكم الزنجى المضروب وتترك الابيض الضارب ..

قلت له : وهل هذا معقول .. ؟

قال المحامى وارد :

ـ معقول جدا .. بمنطق القانون !

لقد كانت المحكمة تبحث في الطريق الذى سار فيه الزنجى فاذا وجدت أنه دخل مقهى بعيدا عن بيته ، فانه يكون ـ فى هذه الحالة ـ قد استفز مشاعر البيض .. ويستحق الضرب والاعتداء ..

وفزعت قائلا :

ـ لماذا ؟

فقال المحامى وارد والابتسامة لا تفارقه :

ـ اذا كان الزنجى قد ذهب الى أقرب مقهى من بيته فهو رجل مسالم ، أما اذا ابتعد ، ولو بضعة أمتار ، عن هذا المقهى . ليذهب الى مقهى آخر ، فانه بلا شك مذنب ، يتحرش بالبيض ويثير الفوضى ، وينشر الاضطراب

وقال بلهجة القانونى المحترف :

ـ وهذه جنحة بالطبع .. !

وسكت المحامى ، وهو يفرك أصابعه بأصابعه ، كأنه يتشبث بشىء بينها ..

ولم أتكلم ..

فقد أدركت أن المحامى الكفيف ، يتشبث بقدر من الامل ، لا يريد أن يتنازل عنه لاحد ..

وأحسست أنى اثقلت عليه ..

فمن الوحشية أن أصمم على أن أصل معه الى خاتمة فى الحديث ..

فالخاتمة معروفة ..

وهو يتشبث بالامل ، فتركته له ..

وفى جامعة أنديانا ـ بولاية أنديانا ـ وهى تتوسط

الولايات المتحدة الامريكية ، وتقع على حافة التسامح مع الزنوج فى الشمال ، واضطهاد الزنوج فى الجنوب ، تعرفت بمعيد يحضر للدكتوراه ..

زنجى نحيل طويل القامة .. نحيف الوجه ، يمسك كتبه بحب ، ويرافق ورقه أو كتابا أو صحيفة ، يضحك أخيرا ، ويسخر كثيرا !

والشاب له أخت شقيقة ، هاجرت الى شيكاغو فى أقصى الشمال ، وله أقارب عديدون فى الجنوب ، وهو يدرس الدكتوراه فى وسط أمريكا ..

وهو متيم بالنظريات السياسية ، ويحب موسيقى الجاز بالطبع . ويتكلم فى كل شيء .. قد يحدثك اليوم عن نصيب اليابان فى بترول المنطقة المحايدة بين السعودية والبحرين ، أو يحدثك عن نصيب الزنوج فى الحرب الاهلية الامريكية ودورهم فى الاستقلال ، ثم ينتقل بك الى أيام احتلال المكسيك للشاطىء الغربى من أمريكا .. ثم يحلق بك فى شعر الزنوج أو شعر افريقيا الحديثة ..

وهو لذلك موسوعة فكرية متنقلة .. ولكنه خفيف الظل باسم الثغر ، وهو فى الجامعة يحترمونه احتراما خاصا ، لانه يتفوق فى أى شيء ، حتى أنهم يسمونه : ميداس ..

وميداس هو اله من آلهة اليونان ، كان يحول اى شيء الى ذهب متى لمسه ..

وتوطدت أواصر الثقة بين « ميداس » الزنجى وبينى وأخذت اراقبه فى روحاته وغدواته ..

فهو أول زنجى يحظى باحترام ملحوظ حتى يخيل اليك أنك ستقابله فى يوم من الايام وزيرا او رجلا على جانب كبير من النفوذ ..

واكتشفت ذات يوم أنه يحب معاكسة الفتيات البيض

.. وانه جرىء يتحدث مع أية فتاة دون أن يتحـرج كما يتحرج دائما بقية الزنوج .. أو يتحرج عادة بعض الشبان البيض ..

وخيل الى ان هوايته أصبحت جنونا

وأنه يريد جمع الفتيات كما يشـغف البعض بجمـع طوابع البريد ..

فكل يوم على موعد او .. لقاء !

.. .. ..

ثم اكتشفت بعد أيام أن « ميداس » الزنجى لم يقابل فى حياته ولا فتاة بيضاء .. ! !

فكلما أعطى موعدا لفتاة لم يذهب اليـها لسـبب من الاسباب حتى أصبحت هذه المحاولات كاللعبة الغريبة ..

وذات يوم قال لى انه يحب أن يتزوج فتاة بيضاء .. ولـكنه بلا شك يؤمن فى قرارة نفسه انه لو تزوج فتاة بيضاء فسيقتل أو سيشنق ..

وحكى لى « ميداس » الزنجى بصوت حالم مخنوق ، أنه لا يزال يذكر حين كان طفلا ، كيف قتل شاب زنجى ، وسـحل على الارض ، حتى سبح فى الدم ، لانه اتهم بالاعتداء على فتاة بيضاء ..

والقصة التى يرويها الزنوج أن الفتاة كانت تشتغل عاملة أسانسـير . وأن الفتى الاسـود داس على زرار الاسانسير .. فنزل .. واكتشفت الفتاة أن الذى داس على النور فتى زنجى .. فاغتاظت ..

ولم يكد يخطو داخل الانسانسـير خطـوة حتى داست على الزرار والباب مفتوح .. فهلع قلب الفتى ، واندفع الى داخل الاسانسير خوفا من أن تنقطع رقبته ..

ولكن الفتـاة اغتاظت مرة ثانيـة ، وادعت أنه هجم عليها .. و .. و

وقامت قيامة المدينة .. وهرب الفتى .. فتجمـع الرجال الغاضبون فى الليـل .. يحمـلون المشـاعل ، ويبحثون فى صناديق القمامة ، وأسطح المنازل .. حتى وجدوا الفتى .. فقتلوه ..

فقلت له :

ـ ولكن لماذا تضيع وقتك فى كل هذه المحاولات مع كل فتاة بيضاء ..

فأطرق ثم ضحك على طريقة الامريكيين ، وقال :

ـ لعلنى أريد أن أثبت لنفسى أننى استطيع .. ولكننى لا .. لا استطيع .. !

إلى
الجنوب



بدت لى أمريكا كأنها مفرمة ، تفرم لحمى .. وأصبحت التفرقة بين البيض والسود ، وما رأيته بعينى فى هارلم حى الزنوج فى نيويورك كالضباب الذى يحجب عنى كل ما رأيته فى أمريكا من مسارح عظيمة ، أو بنايات ضخمة أو مصانع هائلة !

وعدت الى الفندق متعب القلب ..

وكان على أن أعد حقائبى بسرعة لاسافر من نيويورك

وأصبحت أضيق باللون الداكن الذى يطل على من كل ناحية .. حتى من النافذة ..

فمهما رفعت الستائر ، فان لونا داكنا يظل منسدلا بينى وبين السماء .. لون لا أستطيع أن أرفعه ، أو أن أشقه ، ستار دائم ...

وانكتم جو الغرفة ..

وفتحت تكييف الهواء .. فعلا صوته ، واصبحت الغرفة كأنها زورق من زوارق الصيد البخارية التى يعلو فيها أزيز الموتور ..

وضقت بنفسى : أى حياة !
لقد أصبحت من كثرة السفر كرجل يطارده القانون..
حقائبى دائما مفتوحة ، ملابسى دائما مستعدة للطى واللف .. الاثاث الوحيد الذى أملكه هو ملابسى وبضع حاجيات وفرشاة أسنان جديدة اشتريتها ..

حتى السرير ..

ونظرت الى السرير ، وأنا حانق ..

لقد أصبح السرير فى حياتى كالتاكسى .. استأجره ليلة ، أو بضع ليال ، ثم أتركه لاذهب الى سرير آخر .. وفندق آخر .. ومدينة أخرى .. وأناس آخرين ..

وتخبطت فى الغرفة ، والتوت قدماى ، وكأننى تائه يشق طريقه فى زحام .. مع اننى وحدى ..

وسرحت ، ولا أعرف لماذا .. فى الكاتب الزنجى الامريكى « ريتشارد رايت » ، الذى هاجر الى فرنسا ، ومات فى الغربة منذ عام ..

وتعلق خيالى باسم ريتشارد رايت .. الذى ظل يتردد فى رأسى ، وانسجم اسمه ، واختلط مع صوت موتور آلة التكييف

ـ ريتشارد ..
ـ رايت ..
ـ ريتشارد ..
ـ رايت ..
ـ رايت ! رايت ! ريتشارد رايت !

وزاد اللون الداكن داخل الغرفة ، حتى أصبحت ... رمادية ..

ونظرت الى النافذة علنى أرى جزءا من السماء .. متشفعا .

ولكن السماء .. كانت هى السماء ، مثقلة بالضباب وأثقال الصناعة ..

والتفت الى المرآة ، فهى الشىء الوحيد الصافى اللامع فى الغرفة .. وهى النافذة الحقيقية فى الغرفة .. لانها تكسر الجدران .. ولو فى الخيال ، وتفسح صدرها لغرفة أخرى مماثلة ..

ونظرت الى نافذة الوهم ، ونافذة الغرفة قد أقفلها الضباب ..

وعاد الى رأسى ذلك الايقاع الغريب :

ـ ريتشارد رايت .. رايت ..

ومأساة الزنوج ..

أى تعاسة !

واقتربت من المرآة ..

واكتشفت أننى أفعل شيئا غريبا ..

أفعله لاول مرة فى حياتى ..

لقد أخذت أتفرس فى وجهى مليا ..

ولم يفتنى أن أسأل نفسى وأنا أنظر لماذا أفعل ذلك ..

فأنا أحيانا ـ ككل الناس ـ أحملق فى المرآة . وكعادة الناس أيضا أخطف النظر خطفا الى وجهى ، وأتذكر ما عودونا عليه فى أيام الطفولة من خوف من النظر فى المرآة ..

ولكننى .. هذه المرة ضبطت نفسى ، وأنا أحملق فى المرآة طويلا .. وكأننى أبحث عن شىء بالذات ..

لقد كنت أبحث عن لونى ..

وأخذت أحزم حقائبى بسرعة ، وأنا أفكر :

ـ ان الحياة فى أمريكا تضيف اليك صـــفة جـــديدة للانسان كالطول والحجم والذكاء والتعليم والخبرة ..

صفة هامة هى اللون ..

وأسرعت الى المطار ، وأنا أحمل لونى معى ..

. . . .

وقال لى الاصدقاء :

ـ أن كل ما رأيته فى هارلم ، أو شيكاغو ونيـويورك ، وواشنطون .. وكل هذه المدن فى الشمال لا يســـاوى شيئا مما ستراه فى الجنوب ..

ان الجنوب هو قلب المشكلة ، هناك المشكلة مشتعلة .

ـ ولكن كيف أسافر الى الجنوب .. وهل يسمحون لى بالسفر ؟

قالوا :

ـ السفر للزنوج والملونين مســموح به ، لان القطارات والطائرات تابعة للحكومة الفيدرالية ، وقوانينها تمنـــع التمييز بين البيض والسود ولكن ..كيف تعيش هناك..

ان الولايات لها قوانينها الخاصة .. وكثير من ولايات الجنوب لا تسمح بالمساواة بين البيض والسود ..الفنادق مغلقة .. والمطاعم موصدة فى وجوه السود ..

قلت :

ـ والسمر ؟

ـ .. .. .. !!

وسألت :

ـ حتى ولو كانوا من الاجانب ؟

فقالوا ..

ـ انها مخاطرة !

وتعقدت المشكلة ..

فما فائدة السفر الى جنوب أمريكا ثم تقفل فى وجهى المطاعم ، وأطرد من الفنادق .. وينظر البيض الى بعين العداء فى الشوارع ؟

ونصحنى الناصحون فى الشمال أنه لا سبيل الى أن أشق طريقى بمفردى ..

فلا بد من أن أذهب مع جماعة ، ولتكن جماعة من الصحفيين أو أساتذة الجامعات .. حتى لا أبدو مصلحا أو متطفلا ..

وحدثت المفاجأة ..

قسم الصحافة .. فى جامعة انديانا سينظم لعشرين صحفيا ، يمثلون ثلاث عشرة جنسية من أنحاء العالم رحلة خاطفة الى مدينة اتلانتا عاصمة ولاية جورجيا ..

وجورجيا ولاية من ولايات الجنوب العاتية .. وستقوم الجامعة ، وللجامعات شأن كبير .. بالاتصال مع حكومة الولاية ومع عمدة المدينة ، ومع رئيس البوليس .. ومع جامعة اتلانتا .. ومع وزارة الخارجية الامريكية .. وترتب كل ما نحتاجه من أوراق ، وستحدد المواعيد .. وليس علينا سوى الاستعداد للسفر !

ومما زاد فى بهجة أستاذ الصحافة فى جامعة انديانا الذى يرتب الرحلة ، ان ولاية جورجيا كانت قد أعلنت قبل أيام ، انها سمحت لتلميذتين فى سن الثانية عشرة بدخول المدارس مع البيض ..

وفرح الاستاذ ٠٠ وطير فرحه لمجموعة الصحفيين ، وقال انه رتب كل شيء ٠٠

وكانت فى الاذهان أحداث ولاية الابانا ٠٠ ومدينة ليتل روك ٠٠ التى حدثت منذ عام ٠٠

حين رفض حاكمها أن يذعن لاوامر ايزنهاور بأن يقبل تلميذة زنجية فى مدرسته ٠ وقامت القيامة ، وأرسل ايزنهاور قوات الجيش ٠٠ حتى ينفذوا بالقوة ـ ان لزم ـ قرار رئيس الجمهورية ٠٠

وكانت سعادة الاستاذ تطفح على وجهه ٠٠

لان مدينة اتلانتا عاصمة جورجيا أثبتت أنها « أعقل » و « أرزن » من مدينة ليتل روك ٠٠

وقال لى بعض الاصدقاء : ان كيندى حين جاء الحكم قال كلاما حول مشكلة الزنوج ٠ وقال ان أمريكا لاتستطيع أن تتجاهل تكرار حادث « ليتل روك » ثانية ٠٠

ومعنى هذا الكلام أن فضيحة ليتل روك هزت سمعة أمريكا فى خارج أمريكا ٠٠ وان كل هذه الملايين التى تصرفها أمريكا على الدعاية يمحوها ـ فى لحظة ـ خبر عن التفرقة العنصرية ٠٠

وقال لى نفس الاستاذ أنه ينعى على الصحافة الامريكية اهتمامها « المثير » بحادثة « ليتل روك » ، فقد نشرت الاف الكلمات عن مأساة ليتل روك ففضحت أمريكا ٠ من حيث لا تدرى ٠٠

وقال لى المتحمسون : ولهذا السبب ، اقتنع أهل ولاية جورجيا بأنه لا لزوم للفضائح ٠٠

وان التطور نحو المساواة سيحدث لا محالة ، ولذلك

أذعن ـ كما قال لى المتحمسون ـ أهل جورجيا • وقبلوا تلميذتين فى مدرسة إبتدائية هذا العام ••

ولم أشأ أن أعارض الذين حدثونى بما شاهدته فى هارلم ، أو شيكاغو • ولم أشأ أن أتحدث عن الشمال وعذاب الزنوج فيه ••

وتركت كل شيء ، حتى أرى بعينى •• ثم بعد ذلك أحكم بما رأيت ••

وانتظرنا أياما ••

ولكن أنباء الرحلة لم تبد فى الافق ••

وأحسسنا ـ مجموعة الصحفيين وأنا ـ أن هناك مشكلة لا ندرى سببها •• تعطل سفرنا !

وانتظرنا أسبوعا ثم أياما • حتى جاء أستاذ الصحافة فى جامعة أنديانا ليعلن أن بعض التعديلات ، أو بعض التحفظات قد أجريت على الرحلة ••

وقال الاستاذ : نعم سنذهب •• ولكن •• !

فصرخنا معا : ولكن ماذا ؟

فقال الاستاذ بسرعة غير عادية ، وبلهجة حاسمة ليخفي اضطرابه : على الصحفيين الذين أتوا من أفريقيا أن يلبسوا ثيابهم الوطنية فى داخل الولاية ••

وكان معنا صحفيان من نيجيريا ، ومن سيراليون ، صحفيان زنجيان ••

ووقعنا فى الحرج !

لاننا اكتشفنا اننا نحمل المشكلة معنا •• قبل أن نذهب!

ممنوع
الهمس



تستطيع أن تحس التغير بين شمال امريكا وجنوبها بأنفك وجسمك قبل أن يسعفك النظر ..

فكل ماكان مشدودا متوترا في الشمال ، انحنى في الجنوب وتراخى ، كأنه عنقود كبير ، التوى على حافة طبق !

فالارض تنبض ، ووجهك يلفحه نسيم ساخن متثاقل ... والتراب يغلب على الاسفلت .. والهواء مثقل برائحة ما كأنها خليط مطبوخ من الخضرة والخشب .. والشجر صفصاف .. جذعه ضخم .. ولكن ظله خفيف .. لان شدة الضوء تجعل الظل كأنه طلاء مؤقت على الارض ..

والشوارع واسعة ، لا يعبرها طفل بمفرده . والبيوت من دورين أكثرها خشب .. بيضاء أو بنفسجية أو بمبة .. لابد من خضرة حولها .. حتى ولو أختصرت الخضرة الى أصص الزرع .. اللاكيه يلمع في الضوء .. وكانت هواية الازواج دهن البيوت بالبوية أيام السبت بعد الظهر .. والكراسى « الهزازة » الخشبية في مداخل

البيوت ، أو الشرفات التى تشرف على الارض .. أو تغطس فى حدائق صغيرة لا تكفى لرجل واحد يتمدد على راحته .. وعلى الكراسى عواجيز لا تعرف من اين أتوا .. وماذا ينتظرون .. وفيم يحلمون .. يضعون تحت أسنانهم أعواد العشب ـ وهذه عادة أمريكية ـ وكأن هذا هو آخر أعمال الانسان فى نهاية الحياة !

كل شيء يطلبه الضوء .. والضوء يفتح الفامق .. ويكسر الخطوط .. ويخترق الستائر . فتحس أن مدينة اتلانتا عاصمة جورجيا مدينة واضحة .. ليس فيها شوارع خلفية وليس فيها أركان جانبية أو مخابىء ظليلة ..

لقد أفشى الضوء كل أسرار المدينة ففضحها ..

والضوء فضاح ..

والحر يخرج الناس من بيوتهم .. الغرف مفتوحة الابواب .. الحدائق الصغيرة أسوارها قصيرة .. الناس يتحدثون من النافذة والشرفات .. أو من فوق الحواجز التى لا تعلو على الركبة الا قليلا ..

وحديث الشوارع كحديث المخادع ..

فالحر « يفرهد » الجسم .. والسر على اللسان .. ينطق بما كتمه الصدر .. وسرك الدفين فى جيب غيرك .. وهم يغضبون فى الشارع ويلعنون ويحبون ويسرقون ويلعبون على المكشوف ..

قال لى صديق ، ونحن نعبر الشارع الرئيسى :

ـ فى هذا الشارع ماتت مرجريت ميتشام ، مؤلفة الرواية الشهيرة : « ذهب مع الريح » ..

ولم ينتظر صديقى ، حتى أستوضحه . فقد كنا نعبر الشارع وقال :

ـ لقد داستهاسيارة ، بينما كانت تجلس مسترخية على كرسى هزاز فى فناء بيتها !

« وذهب مع الريح » قصة الحرب والحب والحريق بين الجنوب والشمال .. الحبيبة من الجنوب .. والحبيب من الشمال .. بين الشمال والجنوب حرب .. وبينهما حب . وفوقهما وحولهما وفيهما حريق .. والحريق الذى حدث فى القصة حدث فعلا فى اتلانتا أثناء الحرب الاهلية ..

و « ذهب مع الريح » صورة للحب العنيد النبيل الاهوج، الحب كأجمل كارثة .. أجمل من الحريق والفرق والفيضان .. ولكنه حريق وفيضان وقدر مكتوب !

ولذلك فاتلانتا تشم فيها رائحة القدر . المصابيح الكهربائية كأن بها زيتا .. والصور المعلقة فى البيوت دقيقة ، بذل فيها فنانون مجهولون جهدا واعصابا .. والكنائس رهيبة مخيفة كالبوارج .. والدين له سطوة .. والمستشفيات كالحصون ، تجعلك تحس أن الاخسان هو الممر الضيق بين الاغنياء والفقراء الذين ينزلون من صلب العبيد ..

فاتلانتا بلاد زراعية الاصل اقطاعية المزاج ..

ثروتها القطن .. وأيديها العاملة هم العبيد السود .. والملاك البيض هم سادتها المخلدون .. أو المنحدرون .. أو المنحلون ..

وعلى التو ، تحس فى كل ما تراه لمسة أرستقراطية

وكبرياء .. أو عجرفة ..

حتى فى الالوان ..

فالامريكيون فى الشمال شغوفون بالالوان الزاهية ، كل شيء لامع ساطع ، لا بد أن يكشف عن سعره وثمنه قبل مادته ورسمه . والالوان صفراء حمراء . مخططة مضحكة . ولكنها فى الجنوب وقورة منتقاة .. فيها ذوق ولها مذاق .

واتلانتا هى عاصمة الكوكاكولا .. فى العالم ..

فأول زجاجة كوكاكولا فى العالم ظهرت من هذه المدينة الحارة .. وان كان اهل اتلانتا يفضلون المشروبات الروحية !

وشركة كوكاكولا لها سطوة .. فهى تبنى الكنائس .. وتنفق على بعض الجامعات .. كما تعبىء الشراب للعطشى .. فى أى مكان ..

وأهل الجنوب ينظرون الى انفسهم على انهم هم قلب وأصل امريكا .. وينظرون الى أهل الشمال بشيء من الازدراء .. على الرغم من أن الشماليين هزموهم فى الحرب الاهلية ، وأرغموهم على تحرير العبيد !!

ولكن أهل الجنوب من البيض لا يزالون يتمسكون بأفكارهم .. ويعتقدون أن الله خلق البيض ، ووضعهم فوق السود وهم خلاصة البيض ، والسود « زبالة » السود !

وكل أبيض ، مهما نضج عقله يقول لك :

ــ لقد ورثت ذلك عن أبى ، فلماذا أغيره ؟

وهم ينظرون الى أهل الشمال بشيء من الكراهية ..

وقد تحولت هزيمتهم الى كبرياء واضحة ، وكراهية مكتومة . وهم يتمسكون بالتقاليد ، ويعتقدون أن أكبر شرف نالوه هو أنهم انهزموا فى الحرب ..

ولا يزال كثيرون منهم يسمون الشماليين :

« اليانكى » ...

بلهجة الزراية وصعوبة الابتلاع ..

ولا تجد واحدا من البيض لا يقول لك :

ـ لقد مات أبى او عمى او خالى على الاقل فى الحرب الاهلية .. مع أن مائة عام تماما مضت على هذه الحرب!

ودخلنا المدينة متوجسين ..

فمعنا صحفيون من أفريقيا .. وهم زنوج بحكم اللون ..

وكنا نعلم أن هذه اول مغامرة يقوم بها جمع من الصحفيين آزيارة الجنوب للبحث عن مشكلة البيض والسود ..

وقد حجزت لنا جامعة اتلانتا عدة غرف فى أكبر فندق من فنادق المدينة .. وعرفنا بعد ساعات ، ان هذه هى أول مرة ، تقبل فيها ادارة الفندق رجالا ملونين وسودا ، كنزلاء دون ان تقبلهم خدما أو نافخى بوق !

وأصبحنا نسرع الخطا خوفا من الحديث مع أحد ..

فالمدينة كلها تتفرج علينا ..

وكان صديقنا الصحفى النيجيرى وهو شاب رقيق العاطفة الى حد الحساسية الشديدة ، يلبس ثوبه الابيض ، ونظارته الطبية ، ومنظره لوحده مظاهرة ..

وصديقنا الاخر ، من سيراليون ، يلبس ثوبه الوطنى

البنى الذى يشبه الجلباب ، وهو يشبه الملاكم الغاضب ، يقرقع بالضحك .. متظاهرا .. قلقا ..

وكأننا أتينا الى اتلانتا لنضحك !

والناس ينظرون الينا مدهوشين :

ــ ما الحكاية ؟

ــ ما الذى أتى بهم الى قلعة الجنوب !

ــ هل هى مؤامرة من الشمال لاستفزاز الجنوب ؟

وأحسست أننى أسير على حبل ..

وقال لى زميل صحفى :

ــ لاول مرة فى حياتى احس أننى تحفة !!

وكان كل شىء مرسوما لنا . والتعليمات مشددة لا نحيد عنها ، علينا ان نسير معا ، ولا يفترق واحد عن الآخر ..

ثم ننزل الى غرفة ــ ستقفل علينا ــ لنأكل معا . ولا نختلط بالنزلاء البيض .. حتى نقابل العمدة فى الصباح ، ونقابل أساتذة الجامعة ، ورئيس البوليس ، ومدير المدرسة التى قبلت الفتاتين الزنجيتين الصغيرتين هذا العام .. حتى نقتنع !

وهمس لى بعض الاصدقاء من الوفد أن سبب تأخير الرحلة عن موعدها أن أصحاب الفنادق فى المدينة عقدوا اجتماعا قبل أن نصل . وأعلنوا حالةالطوارىء . وأخذوا يبحثون :

ــ هل يقبلون وفدا صحفيا فيه ملونون ؟

والسابقة خطيرة .

ورفض أصحاب الفنادق أول الامر ، خوفا من ان يعلم أهل المدينة من البيض ، فيجتمعوا ويغضبوا ، وتحدث مخاطر او مفاجئات ..

وتدخلت واشنطون . وألحت بقبول الوفد ، خوفا من الفضيحة او تمسكا بمبدأ جديد .

وأخيرا وصلوا الى حل وسط .

ان ننزل فى أرقى فندق ، حتى لا نختلط الا بعلية القوم ! وان يلبس زملاؤنا السود ملابسهم الوطنية ، حتى يبدو أنهم ليسوا من الزنوج المواطنين !

وأن نسير معا ، حتى يبدو أننا وفد عابر وزائر لن يقيم طويلا .

وأن نأكل الافطار فى غرفنا .

. . . .

وثارت مناقشة طويلة حين أقاموا لنا حفلا ! حضره أساتذة الجامعات ، وصحفى أشقر يترأس جريدة محترمة ، تدافع عن الغاء التفرقة العنصرية ، وبعض المحامين الذين جاءوا ليتفرجوا علينا و ...

وكان السؤال :

ــ الى متى ؟

وقال مدير البوليس :

ــ بصراحة ، انك تناقش العاقل من البيض ، فتجده راجحا فى كل شيء ، وحين تأتى سيرة المساواة بين البيض والسود ، يتقلص وجهه ولا يقبل المناقشة ..

وقال عمدة المدينة ، وقد قيل لنا انهم انتخبوه ، لانه من أنصار الغاء التفرقة ، وهو يملك عدة مصانع ،

ومتاجر ، ويعادى حاكم الولاية الذى يعارض المســاواة بين البيض والسود .

ـ المسألة تحتاج الى صبر طويل

ـ وحتى متى ؟

فهز كتفيه حائرا .

وكان السؤال الذى يحيرنا حقا :

ـ هل يمكن ان تبقى هذه التفرقة فى المطاعم والمساكن والسينمات والمسارح والسيارات ؟

وأخيرا ، وصلنا الى رأى اتفق عليه أغلبية الحاضرين :

ـ ان حل مشكلة الزنوج فى الجنوب ستستغرق على الاقل ثلاثة أو أربعة أجيال ..

وسألنا :

ـ وما عمر الجيل ؟

ـ ثلاثون أو عشرون عاما !

ومعنى ذلك ان هذه الاوضاع ستبقى مائة عام أخرى !

وراعنا الاستخفاف او الاستسلام للواقع !

ـ ولكن ماذا نستطيع ؟

انها أمور يستوى فيها الاستخفاف والحماس ، ما دام اشد المتفائلين يعتقد أن المشكلة لن تحل غدا

. . . .

وهبط الليل ، وصفت السماء صفاء الحلم السعيد !

وراعنا الفرق بين الجو فوق ، والجو تحت !

واختلط فينا الاحساس بالخجل والاشفاق والغيظ.. وقلة الحيلة !

وقرر صديقان من الهند ، وانضممت لهما ، أن نذهب

لنسمع موسيقى الزنوج ! الآن ، وعلى الفور ، وبأى ثمن !

وذهبنا الى حانة « الطاووس » ..

وصعدنا اليها فى ممر طويل ضيق يميل بشدة ، كأنما نتسلق جبلا

الممر لا يتسع الا لشخص واحد . والميل شديد . يلخص فلسفة الحانات ، والوصول الى الشر ، واللذة

الصعود صعب ، والانزلاق - أو الهبوط عائدا - سهل .

وأصحاب الحانات ، فنانون - أحيانا - فيما يرسمونه ويخرجونه فى مداخل الحانات ، فبعضهم يرسم لك كهفا وحجارة ، وأضواء وممرا ضيقا ، كأن صاحب هذه الحانة يريد ان يردك الى عهد الكهف ، وانطلاق الشهوات بلا حساب

الممر الطويل العالى ، ليشعرك انك تصعد على جبل ، خصيصا ، لتذنب !

مع أن صعود الجبال - عادة . للتوبة ، لا لارتكاب المعاصى وهذه هى الفكرة !

وفى نهاية الممر ، تلقفتنا سيدة فى قفص ، لتقطع التذكرة .. فاذا بها غالية الثمن ، بالنسبة لما يوحى به ذلك الممر الذى يشبه عنق زجاجة مبتورة

وأطل علينا بضعة زنوج ، كأنهم مصارعون على الاستيداع أو من الهواة الذين يجمعون بين وظيفتين !

وفوجئنا بعد الممر الضيق ، بدهليز رفيع طويل

ولم تتوقف المفاجأة عند ذلك ، الا حين وصلنا الى الصالة نفسها ، فاذا بها بهو كبير كأنه بهو فى قصر من قصور الرومان .

في اتساع ملعب كرة القدم . ومع ذلك فليس فيه موطىء لقـــدم

ولفحت اسماعنا الموسيقى ، كأن سخونتها تهب من فرن قريب

وكانت المغنية الزنجية تغنى أغنية تقطر شجنا :

ـ يا ناس نفسى

أمد جسمى على الارض وأتمدد

وعبق المكان بالموسيقى والاغانى ومشاعر العنـــاء والشوق الى المستحيل كما يختنق مكان صغير بدخان كثير

ودارت الالحان بلا انقطاع ، كأنهم لا يتعبون . وقل احتشام الجمهور .. فأصبح لكل سجيته .

والاغانى الزنجية تتردد من الجـــوقة الزنجية على الجمهور الزنجى فى الصالة الزنجية حتى أصـــبح الجميع يمسكون بالوحدة جمهوراً ومطربين وموسيقيين وسقاة

وشدت المغنية الزنجية ثوبها الابيض على جســدها بأحكام شديد وكأنها ولدت به ..

وغنت .. فأثارت مكامن الشجن ..

والغناء عند الزنوج بكائيات أو غزل ..

وصوت المغنية كاللؤلؤة التى تشق الزجاج . نافـذ لاسع .. والسامعون ـ من شدة الوجد ـ أصــبحوا من زجاج .

وبكائيات المغنية تعاتب القدر ، ولكنها لا تلعنه .لانها تخاف أن تستثير القدر . ولكنها تلعن « الحظ » الذى

حكم ·· وتتكلم عن هجر المحبين وافتراق الاحبـــــاب وشوق العشاق

والبكائيات فيها ظرف .

ظرف المساكين الذين يبتلون فيضحكون . ويرفضون الكآبة ، والضحك له سر لا يدركه عديم الخيال !

ولو تفرست فى النغم لوجدته لحنـــا يربط الروح بالجسد .. معتم مضىء .. يتهدج .. به نبض .. وله ايقاع .. يصيبك بالقشعريرة .. ثم بالدفء .. فتصيبك رجفة ، فتزحزح قدما ثم تحركها ، وتحرك الثانية ،كأنك مأمور برغبتك ..

والتراشق فى الكلمات ، والتتابع فى النغم ، يهزك ويهدهدك · فلا تملك الا أن تحرك يدك أيضا · وضرب الموسيقى يربط بين اقدامك ويديك ، فتهتز وتضرب بيدك على أى شىء ··

المائدة أو صدرك ..

ويغطى الغناء على كل صوت وكل حركة ، ويتخفف الحاضرون من أحزانهم ، كما يتخفف المصـــــيفون من ملابسهم .. فلا يكترث أحد باصطدام الاكواب .. أو زحزحة الكراسى ·· حين يتململ السامعون من شدة التوتر أو الغناء .. ولا يكترث أحد بالسقاة ! رفعوا الاكواب أو وضعوها ! · ملئوها أو اختلسوا منها رشفات ··

حلال عليهم !

فكل شىء مباح فى صالة الطاووس !

ويا للطرب !

كأن القاعة تطير .. والجالسون يرفضون أن يلمسوا الارض بأقدامهم .. يريدون أن يبقوا فوق الارض . . ولو شبرا واحدا على الاقل ..

ويتدفق دمك كأنه نافورة فى يوم احتفال ! ويبتلع بعض الحاضرين أكوابهم ، وتتلاحق الكئوس بدلا من أن تتباعد وتدرك أن بعضهم لم يغرق أحزانه بعد . أو لا زالت به بقية من أحزان لا تذوب ..

ويحس كل نشوان بقوته . وهى ليست فى الحقيقة قوته .. انها الخمر بالطرب !

وينفلت العيار ..

فتقف سيدة زنجية سمينة ، كانت تجلس فى عائلة . والصالة مليئة بالعائلات ..

استبد بها الطرب ، وأثارت الاغنية اشجانها ووجيعتها . فلم تستطع الجلوس .. وقفت تهتز على الايقاع ، وهى ترفع يديها . والناس يتسامحون . وكأنها تصلى .. لان فى وقفتها شفاعة ، وابتهالا ، واخلاصا .. وان قل الادب !

ثم انتقلت المغنية الى دور فيه خلاعة مستحبة .. ودلال غير مكشوف :

ـ اشمعنى أنا أقول ممكن .. وانت تقول مستحيل !

ولم تكد الصالة تسمع هذا اللحن حتى ماجت من فرط الدلال ، ولكن الفرحة لم تتم .. فقد خرجت أصوات السكسفون النحاسية والاوتار الحزينة ، تنقل المتفرجين من مزاح الى نواح وكأنها موجة ثقيلة تدفعهم ولا يملكون لها مقاومة !

ويغنى المغنى الذى كان يلعب على الاوتار ، والمغنية ترد عليه :

ساعات أحس ..
انى يتيم ..
ساعات أحس انى يتيم وبعيد
عن بيتنا ..
وساعات أحس انى فى العلالى ..
نسر عالى
رميت على الجنب غلبى
وحدفت قلبى ..
فى العلالى ..
تدفنونى فى الغرب
تدفنونى فى الشرق ..
هنا .. وهناك ..
صوت الطبل فى ودانى ..
عشان باحس ..
انى .. يتيم ..
ووحدانى ..

وطار صواب الحاضرين .. وعرف الجرح ميعاده ! وعلت الموسيقى ، فأخذ العـــازفون يضربون الاوتار فى نشاط عجيب . كلما فاض بهم الحنان نشطت أيديهم على الاوتار ، ونشطت صـــدورهم فى الابواق .. حتى تحس أن الزنوج أمة زعمـــاؤها مطـــــربون ، وقضيتها ملحنة ..

وصدق الذين قالوا لى ، قبل أن أصل اتلانتا :

ــ خذ أى أربعة زنوج ، من الذين يدخلون السينما أو الذين يخرجون من السجن .. أو الذين يلتقون عند

نهاية شارع . وستجد أنهم يصلحون لتكوين فرقة موسيقية ..

فالنغم فى دماء الزنوج ..

انه يتدفق فى طريقة كلامهم .. لانهم يأكلون الحروف الحادة .. وينطقون الحروف الخفيفة . . ويخترعون ألفاظا وتعابير ، ولا تهمهم اصول اللغة الانجليزية .وهذا ما يعيبه عليهم البيض الذين ينحدرون من أصل اسكتلندى أو ايرلندى وهم فى الغالب علية القوم فى أمريكا ..

والزنوج يلعبون بالنغم لعبا .

فتسلية الاطفال عندهم هى النفخ فى الابواق ، وتسلية الامهات هى أنامه الابناء على أغان تردد الاساطير والملاحم والحكايات الشعبية الساذجة التى ترجع الى عصر العبيد ، ومزارع القطن ، والذين ماتوا وهم يهربون ... أو ماتوا لانهم لم يستطيعوا الهرب .

وقد أصبحت الاغانى الزرقاء ، والاغانى الروحية ، وموسيقى الجاز مبعث الفخر عند الزنوج بل ومبررا للاستعلاء على البيض .

فقليلا ما تجد فرقة جاز فى أمريكا ، لاعبوها من البيض .

وقليلا ما تقبل فرقة زنجية أن تضم الى أعضائها نافخ بوق أبيض ...

فهم يقولون بصراحة وكبرياء :

ــ الموسيقى لا تجرى فى دمائهم :

....

ونسيت كل ما حدث لنا فى خارج قاعة « الطاووس »

وانسجم صديقاى الهندبان على النغم ... وانتبهنا لما نرى ونسمع .. وقد توالت علينا ألوان الغنـــاء ، كأنهم ينهلون من نهر متدفق الشباب . ولم يتركوا بابا ، ولا معنى ، ولا خلجة الا أصابوها ... فى نشاط !

واذا بالساقية الزنجية ، وقد لبست ثوبا أســود يشبه ثوبا لسيدة أرستقراطية من علية القوم . تبذل صدرها ، واحتشم كسمها ... فزاد من روعتها انهـا تجمع بين الحشمة والتبذل فى توازن شديد .

ومالت علينا الساقية تهمس كلاما لا نفهمه فهى تأكل فى الكلام أكلا . وفهمنا أن فتاة قريبة منا تطلب منـا أن ننتقل الى مائدتها المجاورة ..

ولم نفهم من هى .. ولمـاذا تطلب ذلك .. !

ولكن المسافة لم تكن طويلة ، اذ لا يفصل بيننا سوى متر واحد .. فى هذا الزحام الصاخب ..

واذا بالفتاة ، وقد اقتربنا منها تلبس نظارة ســوداء قاتمة ، وتسلم علينا ، وتقدمنا الى صديق وصديقة ..

والصديق شاب يبدو انه من الاغنياء . ويبـــدو من اطمئنانه فى جلساته انه يشرف « ماليا » على هـــذه الجلسة على الاقل !

وصديقته سمراء صبغت شعرها باللون الاصــفر .. فاشمأز نظرى ، أول الامر ، من هذا التناقض الظاهر ، وان استدعى انتباهى تصميمها أن يكون جسمها أســمر ، وشعرها أشقر !

ولكن تبادل التحية الودية ، وكأننا أصــدقاء ، جعلنى لا أقف عند هذا التناقض طويلا .. وان كان له مغزى لم

أدركه على الفور

وأشارت الينا الفتاة الثانية ، من وراء نظارتهاالسوداء، وكأنها تأمرنا ، وتتوقع الطاعة على الفور ..

ـ أجلسوا ..

فجلسنا !

والنظارات السوداء فى الليل موضة أمريكية ، تستبد بأجمل الفتيات ، وهوليود ترى ليزتيلور أو مارلين مونرو وميرنالوى وغيرهن • يلبسن نظارات سـوداء غامقة ، فى عز الليل ، حتى أصبحت لاترى جميلة فاتنة الا وغطت عينيها بنظارة سوداء

وكأن كل جميلة تريد ان تقول لك :

ـ ما فائدة الجمال ؟

فى نفسى وقلبى متاعب ، أو ابك معى على هذا الجمال.

وكانت الفتاة من هذا النوع الذى يبكى على جماله فهى تشبه التفاحة الناضجة ، المفرطة فى النضوج ،حتى تخشى على جلدها الناعم من العطب . ولابد ان يصيبها العطب مادامت بمثل هذا الجمال

واحترت من أين أبدأ فى النظر اليها . ففى كل ركن راحة وارتواء !

عيناها واسعتان ، صممت على أن تزيدهما رتوشـا ، ورموشها طويلة ، مكحولة كحلا طبيعيا ..

فجاء مكياجها كمن يحسن خطه ، ويبذل فيه عنـاية وشغفا

وكان واضحا أن الفتاة مفرطة الجمال ، وأنها تعرف ذلك وان أى كلام فى جمالها او ثناء عليه كلام معاد .. فسكتنا ، ولم يتكلم أحد

ويبدو أنها تعودت دهشة الناس من جمالها ، وتعودت أن تنعقد ألسنتهم على هذا النحو الفريب

فبدأت تتكلم

فاذا بها آية فى الحديث . تلوك الكلام ، وتنطقه على طريقة بنات الجنوب ، اللاتى يرسمهن تنيسى وليامز فى مسرحياته أو أرسكين كالدوليل فى رواياته ..والتى تحاول مارلين مونرو أن تقلدهن ، وأحيانا تصيب !

فالكلام همس لين وحنان دفين . والكلام لا تعرفه ان كان كذبا أو صدقا ..

ماذا يهم أن يكون كذبا ، متى كان الكذب على هذا الحال، وبهذه الطريقة

وسألتنا الفتاة من أى بلد أتيتم ؟ فأجبنا ..
فقالت :
ـ وهل أعجبتكم الموسيقى ؟
فقلت :
ـ هائلة .. ليس بعد هذا كلام ..
وأنا أنظر اليها !
فابتسمت

ومالت وهى تلبس نظارتها الســـوداء ، ولازلت أرى عينيها واسعتين مكحولتين ، رمشها طـــويل .. ظله على وجنتيها ، يلقى لونا يشبه فى ملمسه الخوخة الجميلة .. الناضجة

وقالت مبتسمة :
ـ لا أقصد هل أعجبتكم موسيقى « هؤلاء » ؟

فقلت ، وانا أقصد اطالة الحوار ، بدلا من السكوت والاعجاب فى صمت .

ــ انها عالية

فقالت : ألا تعرف سر ذلك . ؟

الزنوج فى ولاية اتلانتا كانوا يعملون فى مزارع القطن، وقد ورثوا أغاني افريقية الاصل . وكان اغلبهم يموتون فى السفن الشراعية قبل أن يصلوا الى الشواطىء ، والباقون ينقلون الى المزارع ليعملوا

والذين يحاولون الفرار تكفيهم رصاصة

وكانت من تقاليد السادة ان يضربوهم بالسياط حتى يغنوا بصوت عال

وتململت منزعجا ، فقالت :

ــ لقد كان الصمت أو الهمس محرما عليهم . لان السادة كانوا يخشون ان يتهامسوا ، فيتــآمروا على الهرب .. ولذلك كانوا يدورون عليهم بالسياط حتى يرفعوا عقائرهم بالغنــاء

وهذا هو السر الذى يقولونه عن سبب هذا الغنــاء الحزين العالى .. الذى توارثوه جيلا بعد جيل

وأحسست انى أريد أن أسألها ، ولكن لماذا تقــولين « هؤلاء » بلهجة الاشارة الى الزنوج ..

ومن أى جنس أنت ؟

وكنت أقلب النظر فى شعرها الاسود ، فاذا به ناعم نعومة « غير زنجية » . العيون أسبانية والشعر هنــدى فاحم . واللون مكسيكى او خليط من الشمال والجنوب ..

ولا تستطيع أن تعرف حقيقة أمرها بسهولة ، ولعلهــا أدركت ما أريد ، فقالت :

ــ أمى فرنسية ، وأبى مكسيكى .. وجدتى ..

وأخذت تذكر أسماء جنسيات وأجناس ، وكأنهاخلاصة مغامرات عنيفة تشبه هروب نابليون ، أو مغـامرات دون جوان

قلت لها ، وأنا احاول أن أجس النبض عن المهنة التى تشغلها :

ــ ولكنك ، بهذا الجمال تستطيعـــين ان تذهبى الى هوليوود

فقالت متشمئزة :

ــ ولكننى باردة !

فلم أفهم شيئا

وفتحت حقيبتها ، وهى تدفع لى بطاقة !

فاذا بها قد كتبت عليها اسمها :

ــ بات .. بيكو .. أى بات « الطاووس » وهو اسـم المغنى الذى نجلس فيه

وتحتها بحروف أنيقة .. المهنة :

ــ مسنافرة !

عصر
السرقة



بدا لى كل شىء « معبأ ملفوفا » ..

الاكل فى علب محفوظة من القصدير .. المشروبات فى زجاجات أصبحت شهيرة كنجوم السينما ! والطبيخ يحملونه دائما فى أكياس من الورق • القمصان يضعها المكوجى في كيس من النيلون • المخلل أو الزيت يعبئونه فى ورق مقوى . !

حتى الانسان .. « معبأ » فى سيارات ..

ويكفى ان ترى هذا الحشد السريع من السيارات الذى يسير أمامى :

متى يلتقون كتفا لكتف ؟

ان هذه الملايين العديدة « معبأة » كل واحد لوحده فى فرديته ، أو فى سيارته ، كأنها معطف من الحديد ..

والسيارة عند الامريكى تشبه الفراندة عند بعضنا . يحس أنها ملحقة ببيته . ينتظر فيها انفراج نسمة الليل من كتمة الصباح . وكذلك الامريكى .. السيارة هى كل شىء فى حياته المتحركة القلقة ..

انه يأكل فيها ، ويشرب ، ويحب ، ويشهد السينما — في حفلات خاصة للسيارات — ويقبض الشيكات ، لان البنوك فتحت أبوابا تطل عليك فى سيارتك ،تسلمهاالشيك وتقبضه ، وأنت فى مكانك ، على عجلة القيادة ..

وكنت أحيانا أحس أن السيارة للامريكى أكثر من مجرد فراندة .. انها عند الرجل بنطلونه !

لذلك تشهد فى السيارات المارةأمامك شماعات كثيرة. وملابس كثيرة وقمصانا . وكأنهم يلبسون ، ويقلعون فى السيارات .. وضحكت .. فماذا كان يمكن لعصابة آل كابونى أن تصنع لولا هذا الاختراع المبارك

ان كل حديث فى سيارة مختصر والامريكيون ملوك الاختصار .. كل شيء له رمز .. وكل رمز له حرف .. وكأن مفكريهم يفكرون فى سيارات . كل شيء له طابع مؤقت

واخذت اتدبر هذه الظاهرة الامريكية وأنا فى طريقى الى « مدينة الاشباح »

وهى مدينة تشبه « اللونابارك » او مدينة الملاهى

وكنت قد لمحت سيدة شابة ، تسوق سيارتها وهى تلبس الشورت القصير جدا ، وكأنها فى منزلها !

ومدينة الاشباح تستقبلك بالموسيقى والتهليل ..

والمدينة ليس فيها أشباح ، ولكن صاحبها أراد ان يعيد تسجيل الماضى القريب من حياة الامريكيين ، أيام رعاة البقر ، والهنود الحمر . فأحضر من أنحاء أمريكا كلها كل ما تبقى فيها من « روبابيكيا » وأقام مدينة بأكملها تصور منتصف القرن التاسع عشر

الحوارى صغيرة ضيقة جدا ..

على مشارف المدينة مطعم ، تدخله من هذا الباب القصير الذى يعلو على الركبة ، ويصل الى الصـــدر ، ولا يغلق ، والذى اعتاد أن يقتحمه أوغاد السينما بضربة من قـــدم ، وطلقة من مسدس

وفجأة يصل البطل لينهى « القعدة » فى دقيقة !

وبعد المطعم ، تجد بنكا ، ومطبعة بدائية ، تطبع باليد ، وتكتب باليد !

ثم تفاجئك التماثيل الشمعية لرجال امريكيين بـدت عليهم البداوة والغلظة .. اطلقوا لحاهم ، لانهم يعيشون فى الصحراء قبل ان يمد الحديد ، وقبل ان تصل المياه المنتظمة

وهؤلاء هم الذين كانوا يبحثون عن الذهب فى كاليفورنيا .. وبعضهم وجد الذهب ، فجن جنونه .. وترى الجنون ناطقا فى العيون الواسعة الغليظة النظرات .. ولو أنهـا عيون من الشمع والى جوار التمثال تمثال آخر لسيدة من طراز القرن التاسع عشر

شقراء رفعت شعرها الى الوراء ، لتظهر رقبتهـــا البيضاء الناصعة هذه المرة من الشمع . وانزلت ثوبهـا فوق كتفها .. فكشفت عن صدر « عظيم » وأسدلت ثوبها حتى أصبح يتجرجر على الارض ، وياللغرابة من هـــذه المبالغة فى اسقاط الثوب من أعلى الصـــدر واسداله تحت القدم ..

ولكنه الاغراء .. ولا اقصد اغراء المراة .. للرجل ،

ولكنه اغراء الذهب الذى فى جيب الرجل .. للمرأة..

والتمثالان يجلسان على مقعد .. فى عرض الطريق ، يكشفان لك قصة هذه المنطقة باختصار ..

الذهب ، والمرأة ، والاقتحام ..

وفى مدينة القرن التاسع عشر بأمريكا تحس ان أمريكا اكتشفت سر سحر الملابس الداخلية .. فكل شىء يكشف ولا ينكشف أو يكشف حتى يخطف : وهذا الدلال المصطنع، الذى ينفث العطر الساخن والمساخيق والطلاءات .. التى اصبحت فيما بعد احتكارا لهوليوود ، ليست بدعة طارئة ..

انه ميراث من عصر البحث عن الذهب ..

وكدت أشم هذا العطر من تماثيل الشمع ..

ووقفت أمام التمثالين الشمعيين ضاحكا ..

فقد جلس الى جوارهما عجوزان .. رجل وسيدة ..

الرجل الحى فى حضن السيدة الشمعية .. والسيدة ـ ويبدو انها زوجته ـ فى حضن الرجل الشمعى ..

فكان التناقض مضحكا .. وضحك الزوجان .. لان بعض الاقارب يلتقطون صورهم « تذكارا » من مدينة الاشباح !

وعجبت لهذه « التقاليع » التى يصمم عليها الامريكيون، ويحبونها ويعتبرونها علامة الحرية الفردية

فلا شك أن تلك الرقصات الغريبة التى تطيح بشبانهم

كل موسم .. وتلك التقاليع المتعاقبة تغذى فيهم روح الفردية الى أقصى حدودها .. الى حد تشجيع النزوة..

وقد حكى لى صديق تذكرت قصته بعد ان شاهدت السيدة التى تسوق السيارة بالشورت ، وبعد أن شاهدت العجوزين اللذين يلتقطان صورة منافية للحشمة ، وهما فخوران

وهى قصة سائق أتوبيس ، كان من خيرة السائقين الذين أمضوا ما يقرب من العشرة اعوام ، يشتغل فى خط واحد فى مدينة سان فرانسيسكو ..

وذات يوم ، طرأ له خاطر غريب .. نفذه على الفور ..

قرر أن يسوق سيارته ، بعد أن أخلاها من الركاب ، وأن يسير بها ولا يتوقف مهما كان الثمن ..

ومشى فى شارع لا يتوقف بين سان فرانسيسكو الى لوس انجيلوس .. وهى مسافة تشبه المسافة بين القاهرة وأسوان

وقامت قيامة الشركة ..

وأبلغوا البوليس .. سرق السائق سيارة !

وقالوا : جن جنونه

وقالت الصحف : أغرب مغامرة لسائق فى تاريخ السيارات الخاصة والعامة !

وقبض على الرجل طبعا ..

وسأله البوليس : لماذا فعلت ذلك ؟
فقال : من شدة السأم ..

فقطب رجال البوليس جباههم ، ولم يفهموا

وسألوه : لماذا لم تعد الى محطتك كالمعتاد !
فقال : جوابى هو سؤالكم .. لاننى أعود كل يوم الى محطتى كالمعتاد ..
فزادت اجابته من حيرة رجال البوليس .. وقالوا انه لص فاشل .. من هؤلاء الذين يسرقون التماثيل والمسلات ويحاولون سرقة الكبارى .. ومن هؤلاء نجد الكثيرين !
لصوص عاديون ، ولكنهم مصابون بجنون العظمة .. بدلا من أن يسرقوا سيارة .. يسرقون أوتوبيسا !
والتقطت الصحف هذه القصة ، فنفخت فيها وكبرتها .. حتى أصبحت مانشيتا

وهاج كثيرون من الامريكيين ، وماجوا ..
وقالوا : اتركوا السائق ، انه أروع سائق عرفه تاريخ الاوتوبيس ..
ان له شخصية .. ان له فردية ..
انه رجل يسترد حريته ، بعد أن أعدمها السأم ، وقتلها الروتين !
وبالفعل ، نجا السائق من المحاكمة ، بعد ان تنازلت الشركة عن الدعوى ، وأقام له زملاؤه حفلة ، وكتب الكتاب يدافعون عن حرية السائق .. الذى سرق أتوبيسا !

. . . .

ومشيت فى حارة صغيرة ، تتصدرها حانة مظلمة وفندق .. من الخشب .. به بلكونة .. واعلان عن : المبيت ليلة واحدة والدفع مقدما
واذا بصفارة قطار تنطلق من المدينة ، والناس يتصايحون :

ـ القطار أوشك أن يبدأ ..

ولم أعرف فى البداية ما الذى حدث ..
وأى قطار يتكلمون عنه ..

فقد لفت نظرى بيت صغير ، وقد تدلى من نافذته تمثال شمعى .. أو على الاصح تدلى قدمه فقط .. دلالة على أن شيئا خطيرا يحدث داخل المنزل ، ويوشك واحد من سكانه أن يقفز بنفسه من النافذة !

لعله حريق .. او حادثة سطو !

ودخلت الحارة الضيقة ، وصوت القطار الذى لا افهم سره يهز المدينة ..

واذا بأناس يتجمعون حول قفص ، لا يتعدى قامة الرجل الا قليلا ..

القفص يشبه الاقفاص التى يضعون فيها حيوانات السيرك ..
وقال الناس : هذا هو سجن المدينة ..

لقد كان الزاحفون على الذهب ، يتقاتلون ، وكان القانون لم يتأكد بعد ، الفرد يضع قانونه بيديه ، حتى السجن لم يصبح بعد سجنا من قضبان ، وحجارة ، وحراس ..
مجرد قفص ..

وأسرع بقية المتجمعين نحو قطار المدينة الذى لم ينقطع عن الصفير ..

فاذا به قطار يشبه قطارات القرن التاسع عشر التى كانت تقطع الطريق أبطأ من الدواب

واذا بالسائق يلبس ثيابا مهلهلة ، وقد لطخ وجهه

بالشحم وذرات الفحم حتى أصبح سائقا حقيقيا ..

والكبار يندفعون الى القطار ، قبل الاطفال ، اويحملون اطفالهم ، ويلقون بأنفسهم الى العربات ، كأنه آخر قطار بعد منتصف الليل

ودخلنا عربة ، والجميع يتضاحكون ، وكأنهم ينتظرون اطفاء تورتة حفلة عيد ميلاد ..

والاطفال أصبحوا فى هذه الرحلة المزيفة هم الرجال الآمرون وصيحات الامهات أو الآباء لا تتوقف محذرة ، أو ضاحكة ، والجميع مستعدون للرحلة ، مع ان الرحلة تستغرق خمس دقائق أو ستا . واهتزت عربات القطار ، وتحركت ،وعلى الوجوه بشاشة الانطلاق ! ..

ولم يكد يتحرك القطار ، حتى جاء « قاطع التذاكر » يلبس ثياب القرن التاسع عشر .. زرقاء ، على القبعة نقش مذهب ، وعلى الذراع اشرطة وعلامات،ويلبس نظارة مستديرة ــ لا تدرى من أين أتى بها لانها تحفة قديمة ــ بل ولا تدرى من أين أتى صاحب المدينة بهذا الرجل لانه نفسه تحفة وكأنه كمسارى على الاستيداع ، يتسلى بما كان يعمل به فى سابق شبابه وعنفوان عمره ..

وفجأة دخل علينا مهديهم المنتظر ، الذى كان يترقبه الجميع والذى ركبوا من أجله فاذا به شاب قاطع طريق .. يحمل مسدسا زنته عدة أرطال ، لا يمكن ان يطلق زناده بأصبع واحدة ..

وقال الشاب الذى يغطى وجهه بايشارب أسود . وقد لمعت اسنانه من وراء هذا الحجاب :

ــ نقودكم وجواهركم على الفور ! ..

وصفر القطار فى هذه اللحظة وسائقه مزهو وانخلعت قلوبنا ..
وضحك الرجال وقام بعضهم ، وكأنهم « يعافرون »مع قاطع الطريق ، الذى كان يقطع طريق أجدادهم .. فى هذا المكان بالذات ..
وتبادلوا بعض الكلمات .. كأنها حلبة استعراضية .. والقطار يعود الى محطته ، لينزل فوج ، ويطلع فوج .. ليمثلوا هذه التمثيلية الصغيرة على « الطبيعة » ..
ولا يزال فى الاطفال بقية من خوف ، وفى النساء طيف من الهلع المستحب ، وفى الرجال شهامة مزيفة !
ونزلت ضاحكا نصف ساخر ..

فاذا بسيدة شبه بدينة ، قارب عمرها من الخمسين ، ولكنها تصبغ شعرها بدقة ، وتزجج حواجبها بتفنن .. وتكشف عن صدرها مثل ساكنات مدينةالاشباح.. فتبدو انها امرأة نصف .. تكاد تندس خلسة بين بنات الثلاثين أو تندس — بعد التنازل — بين نساء الاربعين ..
جلست مكانها .. لاتريد أن تنزل ..
وبدا لى من همهمة النازلين الذين لا يحملون معهمأطفالا ولا يصحبون معهم سيدات ، أن هذه السيدة تركب منذ الصباح ، وتدفع أجرة السفر فى قطار المفاجآت كل مرة..
وبدت بجوار النافذة .. تصلح أصباغها كأن اصبعها أصبع ساحر يحرك يده بطريقة خاطفة ..
وأصلحت ثيابها .. وتحركت فى قعدتها ، تستعد للمرة التالية ..
وتكوم بعض الشباب الذى يتطلع فى مثل هذه المناسبات ، فحدجتهم بنظرة حاسمة . وكأنها تقول لهم :
— وانتم مالكم .. عايزه أخاف تانى .. !

الغريب
والصمت



إبتسمت لنفسى مشفقا عليها ، أو مغتبطا بها لا أعرف

كأننى كنت أرى نفسى ، رجلا غريبا طويل القامة يحمل حقائبه بيديه ، ويميل مع ثقل الحقيبتين ، كأنه ســـقاء يحمل دلوين من المـاء !

فقد كنت أشق طريقى فى مدينة « الباســـو » لاول مرة ..

غريب لا يعرف أحدا ، ولا يعرفه أحد ..

ويبدو أن السفر الكثير يعود الانسان ان يتحدث كثيرا مع نفسه .. ويكشف بعض الجوانب التى لم يدركها أو لم يعبأ بها فى حياته العادية ..

فالمسافر يقظ ، ينـام بعين واحدة ..

وبدا كل شىء لى فى المدينة مقفرا ..

الحركة فى الشارع الرئيسى تكاد تنعدم .. أغلب الدكاكين نائمة أو مقفلة .. أرخت ستائر حديدية حديثة أنيقة .. بل والطيور فى السماء قليلة لغير ماسبب .. وكأن المدينة قد هجرت منذ ساعات ..

اليوم عطلة ..

واكتشفت أن اليوم قد عام فى ذاكرتى .. لا اعرف فى أى يوم أنا ، هل هو السبت أم الاحد ..

وماذا يهم ..

انك فى الغربة تتخفف من كل شيء .. ومن كل ارتباط .. حتى من ذلك القيد الغريب الابدى وهذا التقسيم الحسابى .. سبعة أيام فى كل أسبوع .. تستطيع أن تختلس منها يوما وتطرحه .. او تضيف اليها يوما مادمت لا تعرف أيام الاسبوع على التحديد ..

وسرت فى الطريق ، وأنا أفكر ، وخطاى تتعثر ..

ـ ما هو السر ؟

ألأنك تستطيع أن تنام اسبوعا متواليا .. ويا للسعادة ، أو ان تصحو سبعة ايام بلياليها .. ويا للفجور!

ألأنك سيد الموقف ، ومالك وقتك ؟

بدأت أحسب الحسبة ، لقد كان مقررا أن أسافر الى الجنوب « الجوانى » فى أكتوبر .. وتذكرت أخيرا اليوم .. الرقم .. ولكننى لم أستطع أن أتذكر هل هو يوم سبت أم يوم احد !

المهم أن أسير .. وأن أجد مكانا لى فى هذه المدينة المقفرة

ولكن ماذا يهم الآن ..

. . . .

وهبطت على نسمة من الغبطة رغم تعبى ..

غبطة السفر الى مدينة لا تعرفها ولا تعرفك ، فلاشك أن فى كل انسان نصائح قديمة تتكوم فى داخل نفسه كأنها

حيوان شبه أليف ·· آلاف النصائح التى لقنها لنـــا المعلمون والآباء والامهات ··

وأمهاتنا يجزعن على « الضنى » ..

ــ لا تبتعد عن نهاية الشارع !

ــ احذر العبور عند ملتقى الطرق !

ــ لا تبعد كثيرا عن المنزل حتى لا تتوه ..

كل هذه النصائح التى تهضمها وترسب فى جـوفك مخاوف ، تذوب عندما تسافر .. لانك تستطيع أن تبتعد عن نهاية الشارع ، وتستطيع ان تعبر الطرق ·· بـــل وتستطيع أن تتوه سعيدا ··

انك ترفع حظر التجول الذى ترثه منذ الطفولة ..

وكدت أضحك مستلقيا على قفاى لــــولا أن الحقيبتين ثقيلتان . تكادان أن تخلعا ذراعى وتشدانى الى الارض .. حين تذكرت الافلام الامريكية العادية التى يبدأونهـــا بموسيقى منفردة ، أو أغنية حالمة ، وصوت منفرد وحيد .. ويظهر البطل وحيدا يدخل مدينة لا تعرفه ، لا يملك فيها شيئا سوى الجرأة أو الوقاحة ، والوقاحة عادة فى امريكا مسدس كبير يطل من حزام سميك ··

وتذكرت البطل فى روايات رعاة البقر ..

كيف يصل الى المدينـــــة لاول مرة .. اما هاربا من مطاردة أو « هاججا » لاى سبيل .. ثم تقابله المدينـــة بالكراهة .. لان المدينة تسيطر عليها عصابة ، ويصطدم البطل عادة بالعصابة ويفوز عليها ، ويغادر المدينة .. بعد أن يفوز ــ عادة ــ بفتاة بيضاء حزينة .. !

والقصص « الغريبة » على ما فيها من افتعال تصـــوير

لامريكا فى هذا الجزء .. الفاضى المتسع ..

ان ما أراه الآن هو نفس الجو الذى يظهر فى افلام رعاة البقر ..

فورائى جبل .. وصحراوات .. وفراغ ..

وأمامى مدينة ، بيوتها صغيرة ، ومقاهيها قليلة ، وبنوكها عديدة ، وكنائسها قديمة ..

وضحكت لاننى لم أكن أضع فى فمى تلك البوصة العشبية التى يضعها بطل الافلام الامريكية فى فمه ، يلوكها ثم يقطعها بأسنانه ثم يقذفها على الارض .. وهو يفكر وحيدا ..

ولعلها عادة أمريكية ترمز الى المسافر الذى يقطع طريقه فى قفار ، وصحراوات ، ثم يقتطف اى نبات على الطريق ، ويضعه ـ نصف نائم ونصف حالم ـ فى فمه ..

ان هذه القشة تلخص الرحلة الطويلة التى سبقت مجىء « البطل » الى المدينة ..

لقد كان وحيدا سارحا ..

ولكننى وصلت الى مدينة « الباسو » فى أقصى جنوب أمريكا ، على حدود المكسيك ، وليس فى فمى قشة ، وليس فى حزامى مسدس ..

ودخلت المدينة متهيبا ، نصف متعب !

ولم يطل الوقت حتى اكتشفت أن كل شىء فى المدينة يختلف عن بقية المدن الامريكية فيما عدا الاعلانات ، والمحلات التجارية ، والطرق الواسعة ومحطات البنزين على الطريق ، والكنائس التى تشبه الصيدليات : الخدمة فيها ليلا ونهارا

واغمضت عينى قليلا .. وأنا اكتشف سر الخلاف
انه الضوء ..

ففى نيويورك مذاق أوربا ، ألوانها داكنة قاتمة .. ضباب ودخان وسحاب .. مكاتب مغلقة، أنوار كهربائية .. ظلال قاتمة مكتومة .. أما الشاطىء الغربى – فى كاليفورنيا – فتنفتح فيه الالوان ، وتصفو كأنما كل شيء ، غسله ماء المطر .. ألوان صافية زرقاء حمراء . فيها صفاء المحيط العظيم وعمقه ، وألوان الاثرياء النظيفة .. ولهذا يعيش فيها أهل الفن الذين يتمتعون فى هوليوود .. ويعيش فيها أصحاب المعاشات من كبار الجنرالات ! انها جنة الارتيستات .. والمحالين الى المعاش ..

ولكن الجنوب يختلف .. فألوانه مكسيكية .. دافئة حارة .. صهد الضوء ، وحرقة الشمس .. واصفرار الصحراء .. وكان يكفى أن نرى الشمس فى السماء .. انها تكتمل عند الغروب كما لا تكتمل فى أى مكان آخر ..

السماء عالية مفرودة كقلع المركب فى عز البحر وعز السرعة وسط السفر . الريح تفردها تماما . والهواء نسمة ضعيفة كأنفاس الطفل .. والالوان عظيمة تشبه ألوان الكاميرا ..

وادركت سر جودة التصوير الفوتوغرافى فى أمريكا .. انه صناعى .. والصناعة أسهل من الحرفة .. ولكن هناك سرا آخر ..

الالوان هنا ألوان فوتوغرافية كالتى تراها فى الوان الافلام الضخمة .. الالوان غير مخلوطة .. ولكنها جميلة وفخمة .

وهذه هى أمريكا ..

الفرق بين ألوانها وألوان أوربا هـو الفـرق بين الفوتوغرافى والرسام ..

والفرق بين شاشة السينما الملونة ولوحة من لوحات سيزان أو جوجان هو الفرق بين أمريكا وأوروبا

اللون فى لوحة سيزان أو ماتيس فيه رعشة الفنان .. عصارة النفس . لون داخلى يمتزج بلون خارجى ، كما يمتزج نهران . اللون مدروس مطبوخ . لا يدرك سر « تلقيمته » سوى الذى يحسه ويعانيه ! لانه عـذاب مذوب فى حنان .

ولكن اللون الذى أراه بسيط غير مركب . عظيم . فخم . ولذلك فكل شىء فى أمريكا «لميع» كصور الكارت بوستال ! ..

والسحاب جميل بهيج بنفسجى .. والسماء صـفاء والجو « سداح مداح » ! ..

وأصابتنى رعشة من التهيب ..

وهذا هوالجنوب . الذى يعيش على البترول،أغنياؤه أصحاب ملايين . أعظم المغامرات فيه كانت البحث عن الذهب . وحين انتهى الذهب بدأ البحث عن البترول وفى هذه الارض انسان جديد عنيف .

بدلا من أن يرفع يديه الى السماء . يحفـر الارض بأظافره .. لان الارض هى التى تهبه كل شىء .. الذهب والبترول ..

وانسان الجنوب يختلف تماما عن انسان الشمال فى أمريكا

فهنا مزارع القطن بآلاف الفدادين · وهنـــا البترول وهنا أرستقراطية عنيدة ترجع الى أول أبيض ينزل الى أمريكا ..

وفى أمريكا فرعان ارستقراطيان . فرع من ايرلنده ، نزل فى أقصى شمال أمريكا .. ومنها عائلات كينيدى ، ولودج وغيرهم ·· وفرع نزل الى الجنوب ·· الى فرجنيا وجورجيا ..

والارستقراطى فى الجنوب مزارع ومالك جبار . سيد عنجهى ، واقطاعى متســـلط ، وحين فاضت فى أيديهم الاموال أصبحوا يحتقرون الشـــماليين ويســتعلون عليهم ..

وتكساس مثلا ولاية اشتهرت بالكبرياء .

الرجال طوال اشداء ·· يلبسون الثياب الســوداء فى الليل ·· وثياب رعاة البقر فى الصباح · يعتقــدون أن تكســـاس أم الدنيا . أغنياؤهم متكبرون . وفقراؤهم فشارون .

وتذكرت حين نزلت الى مطار « هدسون » عاصـــمة تكساس ·· ذلك التمثال المضحك الضخم الذى وضعوه داخل المطار ، يشبه المسلة فى طوله ، ولكنه تمثال لراعى بقر ، مسدسه فى وسطه ، وعلى رأسه قبعة طويلة ملوية فوق حاجبيه ، وعلى وجهــه ابتسامة الزهو ·· وتحت هذا التمثال الذى يكاد يبتلع المطار كله نحت شعار أهل تكساس الشهير :

ـ راجل واحد يطفش مظاهرة !
ولا شك ان آية الفردية تنعقد لاهالى الجنوب ..
كل يشق طريقه .. على طريقته .. بالمسدس .. بالعنف . بالضرب . بالوقاحة . بالجرأة . بالذهب . بالعافية .

. . . .

وتعبت ، وأنا أحمل حقائبى .. فقد بدأت الاسئلة فى قلبى تتوالى :
ـ لقد جئت للجنوب لبحث مشكلة الزنوج !
ـ لماذا يرضى الزنوج بشقائهم ..
ـ وهل يرضون به !
ـ ان مزارع القطن لازالت تشغل العمال اليدويين على طريقة تشبه طريقة العبيد القديمة !
ـ انهم يسمونهم « الذين تعرق ظهورهم » لانهم يحملون على ظهورهم أطنانا وأحمالا وأثقالا .

وتذكرت وأنا أسير ، أغنية زنجية قديمة منذ أيام العبيد أى منذ مائة سنة . لا يزال البعض يرددونها .. حتى الآنلان فيهامرارة وفكاهة ، كطعم مشروب الزنوج .

ـ سيدى الكبير وعدنى
ـ لما يموت يعتقنى
لكن دابابن ناوى يعيش على طول
بدل الشهر شهرين
ودقايق
وبدل السنة سنتين

ودقايــق ..
وباين مش ناوى يعتقنى !

وانقلب الجو ، على أن السماء لا زالت صحوا ، والنسيم لا يزال هينا ..

وبدا لى الهدوء فراغا شاسعا وصمتا مخيفا .

واحسست بغربة غريبة ..

وقررت أن أقف ، لابحث عن أى ســيارة تنقلنى الى داخل المدينة المهجورة الواسعة ..

وتأكد لى أن اليوم يوم أحد .. والمدينة صامتة .. والعربات لا تصل الى هذا الطريق المهجور ..

وعرجت على طريق جانبى .. به بضعة أشــجار .. وجدول ماء .. يبدو انه يأتى من فوق جبل .. أو أن صاحب الملك شقه بطريقة الآبار الارتوازية ، ولكن ماذا يهــــم

فقد وضعت حقائبى .. انتظر .. تحت ظل الشجرة الخضراء التى يهتز ورقها دون ضابط

واستراحت نفسى من هواجسها ــ فى هذه المدينــة الصامتة ، حين نظرت الى الماء القليل الذى لا يتوقف عن الجريان رغم اصطدامه بالحصى والصخر ..

وأحسست كأنى أغسل عينى فى ذلك المــاء

وقررت أن أؤجل كل شىء .. كل اهتمام . وكل هم . أن أضعها على الارض .. كما وضـــعت حقائبى على الارض

وبدأ احساسي بالوحدة يفتر ..

لأنني كنت أنقل نظرى بين الشجرة والمـاء

واذا أحسست بالوحدة ـ وهذه تجربتى بعد طول سفر ـ وكنت غريبا ، لا نجد من تحدثه ، أو تهدأ اليه ، أو تتفاهم معه .. فاختر أقرب شجرة ، وأقرب غدير ماء..

وأجلس الى جوارهما

وستحس انك لم تعد وحيدا ..

ان المـاء واحد ، والشجر واحد .. فى أى مكان

الهزيمة
والحنان



تعلقت عيناى بالسماء سابحا

وفجأة ، عدت أكثر من عشر سنوات ، حين كنت فى الهند

وكان أول منظر أثر فى حياتى ، حين ذهبت للهند ، هو السماء

فقد كادت عيناى تضيعان فى ارتفاع السماء وروحى تذوب فى فضائها المتسع

والعجيب اننى بعد عشرة أعوام ، أو يزيد ، أكتشف نفس الظاهرة

ولكن السماء نفس تلك السماء العالية المبالغة فى العلو . لا يهتز فيها ريح ، أو تمر شبهة من ضباب !

انها فى لون أزرق أبيض .. ممتقع مثل لون الطباشير!

وفى الهند ، أدركت أن هذا الارتفاع العظيم ، بسبب الحرارة الشديدة وارتفاع السحاب ، يوهم الانسان بالضآلة

فيحس بالضآلة ، والخوف من الضلال !

ولست أدرى هل هو أحد أسباب التصوف فى الهند! فارتفاع السموات العلا الى هذا السمو ــ أمام العين ــ يشعر الانسان بالرهبة وشىء من الضياع ..

وقد عشت سنين مع هذا التفسير ، حتى فوجئت بسماء مدينة « الباسو » ، التى تشبه سموات الهند فى ارتفاعها الشديد تماما

وغيرت رأيى

ان السماء عالية هنا .. ولكن البلد لا تشعرك بالروحانية .. انها تشعرك بالوحدة القاسية .. بين اتساعها وضآلتك

وقالوا لى :

ــ ان الباسو قطعة من أسبانيا ، لان المكسيك تبعدعن المدينة نصف ساعة . وتستطيع ان تعبر الحدود بالترام . ولن يطالبوك بكثير من الرسميات . وتستطيع أن تقضى يوما ، أو يومين ، ثم تعود الى أمريكا

ولم انتظر طويلا

ففى المكسيك تأثير اسبانيا فى اللغة والالوان والموسيقى، وفيها مفتاح غرب أمريكا وجنوبها

فقد كانت المكسيك تحكم هذه الاراضى ، حتى حاربتها أمريكا ، وطردتها بعد حرب عوان !

وبقى نفوذ المكسيك بعد انسحابها فى هذه المناطق

وهناك من الزنوج من يتحدث الاسبانية ، ولا يجيد الانجليزية

ولم انتظر طويلا ..

وذهبت سيرا الى حافة الحدود . وعبرت الميادين الواسعة ، المليئة بالنوافير (تشبها بالمكسيك) ، وان كان الامريكان قد ملئوا تلك النوافير بالتماسيح ! احتفاظا بالطابع المحلى !

ومدينة الباسو الامريكية تكاد تحتضن مدينة جواريز المكسيكية ، كتفا الى كتف

والمدينتان لا يفصل بينهما سوى مخفر متواضع للبوليس

وتستطيع أن تنتقل بين أمريكا والمكسيك فى خط دائرى للترام

يبدأ الخط من حافة مدينة الباسو ،ويعبربك الحدود، ويشق مدينة جواريز ، ثم يعود بك ــ دائرا ــ الى مدينة الباسو من جديد ..

وامتلأ الترام بالاسبان والمكسيكيين ، والسيدات والاطفال والاسبتة والحاجيات ولوازم العائلات ، وفتيات جميلات شعرهن أسود ، وملامحهن شرقية ..

والفرق كبير ناطق بين المدينتين المتجاورتين ..

ففى الباسو حديد وزجاج ونيكل وشنابر نظارات واعلانات .. وفى جواريز ترام وقدم وفن وكل شىء يبدو مباحا !

وقد وصلت بعد انتهاء موعد الكرنفال السنوى .. ولكن الميادين والشوارع كانت لا تزال مزدحمة بآثاره ، ملطخة بألوانه .. فالشوارع مسدودة ــ تقريبا ــ بالعربات المكشوفة ، وعليها تماثيل ضخمة ودمى ملونة من دمى

الكرنفال الضاحكة والساخرة ! واعلام صغيرة تهتز فوق أعواد الترام . والتزاحم على الغرباء مسألة طبيعيـــة ومتوفرة

فهذا يريد ان يصورك على حصان من الخشب ، وقد لبست قبعة مدببة مكسيكية ، وحذاء طويلا ، ولبست صديريا من الصوف الملون بالالوان العديدة .. النبيذى الغامق ، والبنفسجى العميق •• والاخضر الزرعى •• والاصفر فى لون المانجو .. !

وهذا يدعوك الى فندقه ـ مجانا ـ باستثناء المشروب ، وبالغرفة بلكونة تشرف على الميدان والمقهى ، وتستطيع أن تسمع منها الاغانى الاسـبانية والمكسيكية •• التى ستملأ الميدان بعد ساعات !!

وهذا يدعوك أن تشترى تماثيل خشبيـــة ، آية فى الفن ، والحساسية للعذراء ، أو دون كيشوت وصاحبه سانكوبانزا

والى جوار حائط قديم ، جلس مغن اعمى شاب •• يقطر صوته بالحنان والعذوبة والحب .. يغنى ، ويعزف ، ووراءه « أركان حربه » وحاسبو أجره واحسانه . . وهم لا يقلون عن عشرة من الافذاذ أو الافظاظ !

وسرعان ما يأخذك الحماس من تماثيل دون كيشوت الخشبية ، وقد نحتوه فى خشب سهل مطيع ، تمثالا طويل القامة ، نبيل القسمات ..

نموذج من النبل « العبيط » الذى تميز به الشرقيون وقتا طويلا ..

وتأخذك تلك الالوان الزاهية ، والنقـوش الدقيقة ،

فاذا بالمكسيك .. خليط من دم الثور، والنوافير البيضاء، والبلكونات الرخامية ، والدنتيلا النسـائية الرقيقة !

دم عريق مسفوح ! مخلوط بالنبيذ والنغم !

فالموسيقى الاسبانية تسيل فى كل أركان الشوارع ، وبين الاطفال ، والمغنين الاكفاء ، وجوقات المتطوعين يومين فى الاسبوع .. وبقية الاسبوع ، عمل بالكاد ، وشـوق شديد الى الموسيقى ..

وبين جواريز والباسو ، وبين المكسيك وجنوب أمريكا ينفتح لك باب يكشف لك سر الزنوج .. وسر تفوقهم فى الشعر والموسيقى والنغم ..

فلقد عاش الزنوج عبيدا زهاء مائتى عام أو يزيد .. جاءوا بهم من أفريقيا ، ونزلوا أول الامر فى شـاطىء فرجينيا .. وعملوا فى زراعة الدخان . ثم بدأوا يزرعون القطن .. ولكن الحزن تفجر فى الحانهم نغما ولهيبـا وشـعرا ..

وقد قال لى شاعر زنجى :

ــ يكفى أن تحس أنك زنجى ، حتى تحس أنك تحمـل مأساة خاصة . تستطيع لو وهبت شيئا من الحساسية ان تعبر عنها .. شعرا أو غناء ..

أن مأساة الزنجى ، عند الرجل الحساس ، لا تختلف عمقا من مأساة هاملت ، أو دون جوان ..

قلت للصديق :

ــ ولكن الجنوب يفيض بالكراهية للسـود ، أكثر من الشمال ..

فقال :

ــ لهذا هاجر كثيرون من الجنوب الى الشمال ، حتى

ان كثيرا من رجال الصناعة أصبحوا يشتكون من هـذه الهجرة المستمرة .. خوفا على «الايدى» العاملة السوداء، وبسمونها أصحاب « الظهور المبتلة » ايماء ورمزا للعرق الغزير !

وتحدثنا عن الهجرة ..

كيف أن أكثر القصص الامريكية فيها حديث هـذا الانتقال من الجنوب الى الشمال ..

فالامريكى ـ بطبعه ـ لا يحب البقاء ، فى مكانه . وهو دائم السفر ..

والابيض ينتقل من ولاية الى ولاية من باب الترف أو السياحة .. أو البحث عن عمل ..

ولكن الاسود يتنقل من الجنوب الى الشمال بحثا عن عمل ، أو هربا من اضطهاد ، أو خوفا من عقاب ..

وأكثر القصص الزنجية ، بطلها يقتل فى الجنوب ، أو يهرب الى الشمال ..

مثل تلك القصة الرائعة التى تصور أمريكا زنجيا قتل وهرب ، ثم تاب ..

وتصور حياته بعد التوبة فى الشمال ، بين أهله فى هارلم

وقصص ريتشارد رايت كلها مليئة بهذا الهـارب من العقاب ، حين يتجمع البيض ، وقد صمموا أن يقتلوه ، بعد اتهامه بالاعتداء على بيضاء !

وقد حكى لى صديق زنجى ، أنه لا يزال يفكر فى القصة التى سمعها وهو طفل ..

كيف قتل البيض ثلاثة زنوج ، واتهموهم بأنهم قتلوا

رجلا أبيض ..

وحقيقة القصة أن الشريف (حاكم المدينة) احب زوجة رجل من البيض .. وحدثت بين الرجل وزوجته مشادة عنيفة ، انتهت بأن خطفت الزوجة سكينا كبيرا ، وطعنت زوجها ..

وخرج الزوج ـ جريحا ـ وتعثر بضعة أميال الى بيت صديق ، وهناك مات ..

وتكتم الشريف الخبر ..

ولم يفتح أى تحقيق ..

ولكن البيض ثاروا ، وقتلوا ثلاثة زنوج انتقاما فظيعا لجريمة وهمية ..

ومن هنا كانت هذه المأساة ـ وحدها ـ تفجر من شعراء الزنوج وقصاصيهم معينا من الالهام والواقعية .من الهزيمة والحنان

فهذه مارجريت وولكر ، الشاعرة تقول :

ـ « لا أريد الجنوب · ولا أريد كابوسا من الحريق والزيت »

وهذا شاعر آخر ، في قصيدة اسمها « أغنية فتاة سوداء » يقول :

ـ قلبى انكسر
في الجنوب
شنقوا حبيبى
وعلقوه
فوق الشجر
سألت ربى :

ليه الصلا
والعـذاب !
مادام حبيبى
فى الجنوب
شنقوه
وفوق الشجر
ربطوه
بعد الصلا
والعذاب

وقصص السحل فى الشـوارع ، قصص دامية ، وهى تشبه أفلام السينما من فرط الانفعال فيها ، والحركات المريبة ، والصاخبة ..

اذ يزحف البيض .. الغاضبون حين يأتى الليل ، وهم يحملون المشاعل .. ويتزعمهم متطرفون ومتطوعون .. وهم فى العادة ـ وهذا يتكرر كل مرة ـ يقتحمون السجن .. ويخطفون « القاتل » أو المتهم .. ليقتلوه بأيديهم .. حتى يصنعوا العدل بأيديهم ، لا بيد الدولة ..

قبل الصباح ..
يأتى الفجر ..
ويقدم الزحام ..
ليرى الجثة المعلقة فى الشمس ..
ويشتاق النساء الى النظر ..
لكن ولا واحدة ..
تنظر فى أسى ..

من عيونها الزرقاء التى تشبه الحديد ..

وحتى الاطفال البيض، يصورهم شاعر الزنوج، المرتجف بالفزع والغيظ ، فيقول :

ـ وأطفالهم يقدمون ..
ففيما بعد سيصبحون قتلة ..
فيرقصون ..
حول ذلك الشيء الفظيع الذى يتدلى ..
من الشجر ..

وهذه الحياة المستحيلة ، حقا ، فى الجنوب تراها فقط في فرص العمل الضيق ، وانخفاض مستوى المعيشة ، وفى تصعلك الزنوج ، وتسيد البيض • بل ان صغار البيض ، هم غالبا أكثرهم حماسا للتفرقة بين البيض والسود ••

انهم صغار المستبدين ..

فالمالك الكبير ، منذ أيام المزارع ، كان يكتفى بوضع القانون ، وتحديد الاجور ، وكان لا يظهر الا كل يوم أحد ، فى حانة المدينة الصغيرة .. يخبط على كتف هذا الابيض الفقير ، وكأنه صديق قديم ..

فلا يملك ذلك الابيض الفقير الا أن يتحمس لمجرد أنه أبيض ، وأنه أصبح صديق المالك الكبير ، وحقيقة أن الفقر والثروة يفصلان بينهما • فهذا ينعم فى قصره المنيف •• وذلك ينام فى مقهى أو حتى على حافة المزارع !

ولكنه لا ينسى تلك الخبطة على كتفه ، ومعناها أنه ابيض ! !

وهذه وحدها ميزة ، عليه أن يحتفظ بها ، ويفخر بها ، ويتمسك بها تمسك المستبد بضحيته !!

فاذا أتت فرصة رائعة ، ذات يوم سبت ، حين يقل العمل ، ويخف النشاط ، ويتخفف الناس من مسئولياتهم

وهنا ــ عادة ــ تحدث الحوادث ، كما تحدث حوادث الاعياد والعطلات الصيفية والمناسبات ..

زنجى عاكس بيضاء ..

فاذا بالخبر يسرى كالنار فى المدينة ..

همس ــ ويا للعار ــ بأغنية ماجنة ، أو غير ذلك ، من تماحيك البيض ..

فاذا بذلك الرجل الابيض « الفقير » يصبح فارسا ، كأنه يمتطى صهوة جواد من جياد الشياطين ..

يريد أن يشرب دم الزنجى ، على الفور ، وفى جرعات طويلة .

. . . .

وقلت لنفسى :

ــ اى مأساة حقيقية لو أحب فتى زنجى فتاة بيضاء .. أو أحبت فتاة سوداء زميلا أبيض .. من فتية الجامعات ، او فتية المحلات التجارية ، أو عاملات المزارع !

لاشك أنه الدمار !

فهناك قصص زنجية أدبية عديدة تحكى هذه القصة ، التى تشبه مأساة روميو وجولييت الخالدة ، بين البيض والسود . وغالبا ، يكون البطل من البيض ، والبطلة « مولدة » ، سمراء ، شبه بيضاء .. وحين يكتشف أن بدمها قطرة من دم الزنوج ، تحدث المأساة ..

فكيف ينفصلان ، وقد اعتادا أن يتقابلا معا ، وأن يسترقا النظر والهمس .. والاحلام السعيدة !!

ولكن مثل هذه القصة تنتهى كالعادة بحب مستحيل . وتنتهى قصة ضوء القمر ، والزرع ، ولقاء الشوارع ، وهمس التلاطف ، ودموع الاشفاق من بعيد ، الى مظاهرة تطلب رقبة الفتى ..

فاذا فازوا به علقوه فى شجرة ..

واذا فاز بالحياة ، فر عبر الحدود الى المكسيك !!

واخذت أفكر :

ـ هل قصة الحب المستحيل هى العذاب الوحيد الذى يتعذبه الزنوج !!

وتذكرت ذلك الفتى الذكى الأريب ، الذى قابلته فى الشمال ، حيث يتمتع الزنوج ببعض التسامح ، وكيف يحلم دائما بأن حياته سوف تنتهى بحب بيضاء ..

وستنتهى بفاجعة ..

وقد كان هذا الاحساس يشبه عنده احساس المتشائم المتوجس دائما ، الذى يخشى من السقوط ..

ان ما يقوى المأساة هو الاقتراب والبعد ..

الحب المستحيل !!

ولست ادرى ما الذى جعلنى أفكر فى الحب المستحيل طيلة الوقت .. حتى ذهبت الى فيلم يعرض مأساة دون جوان ، من زاوية جديدة ..

فيلم اسمه : عقاب دون جوان ..

. . . .

يبدأ الفيلم ـ الذى شاهدته ـ فى دار تشبه القصور

الاسبانية مدخلها خافت الضوء .. تتدلى من ردهتهنباتات طويلة رقيقة واهنة .. وزهور صفراء شديدة الصفرة .. والديكور يشبه رسوم والت ديزنى ..

وأول صورة فى الفيلم يظهر شيطان ، متمدين ، يقول :

ـ أيها السادة ، سنحدثكم اليوم عن جهنم ..

والشيطان ، كبير الشياطين ، عينه اليسرى مريضة ، مغطاة كعين قرصان ..

ومساعداه شيطانان متمدينان ، يلبسان ثيابا فرنسية من طراز لويس السادس عشر ..

يبدو من حركاتهما الكبرياء والنفاق والخبث ..

وآية النفاق تلك الاحاديث التى تسمع فى البلاط الملكى .. لغة متحذلقة .. ذلاقة لسان . تكبر وترفع . خطوات مرسومة .. وكلمات محسوبة ..

ويصرخ الشيطان الكبير من وراء مكتبه الزجاجى :

ـ تصوروا أنها تتمسك بعفتها الآن ..

فيقول المساعدان :

ـ من هى ؟

فيقول كبير الشياطين :

ـ فتاة عفيفة من الارض تهدد كل شىء نصنعه ..

أيها السادة ، اننا فى خطر ..

فليس من المعقول أن نجرب معها كل الغوايات ، فلا تسقط ، ان هذا حقا أمر خطير ..

ويتحذلق المساعدان فى نفاق وتكلف ..

ويعلن الشيطان الكبير قراره الاخير ..

لقد قرر أن يستخدم الرجل الذى أغوى كل امراة فى الارض .. وله تاريخ طويل .. سوف يستخدم دون جوان

ودون جوان ـ البطل الشهير ـ ضيف على جهنم منذ سنوات ..

ويأمر الشيطان الكبير باحضار دون جوان الذى يحضر.

فيظهر شاحب اللون ، كفتية الاساطير .. سمهرى القوام . يدخل من باب يكاد يقترب من قامته ..

ويقول له الشيطان الكبير :

ـ سأخفض عقوبتك فى جهنم ..

سنخفض اقامتك فى جهنم ٢٠٠ سنة ، لو نجحت فى غواية هذه الفتاة ..

وهى على أى حال ليست صعبة ، وأنت بطل الاساطير الماجنة والعفيفة ! فاستعمل معها خبرتك وفنونك !

ويوافق دون جوان ، أخيرا ، على شرط أن يصحب معه خادمه العجوز ..

ويقول دون جوان للشيطان ان خادمه قضى معه أكثر من مائة عام فى جهنم . ويتمنى لو يقضى ليلة واحدة .. فى الارض ..

ـ فاسمح له بالنزول ..

ويهبط دون جوان وخادمه ..

والخادم عجوز متصاب .. له كرش هلوك . تطيب له كل الملذات ، حتى ولو كانت فى جهنم ..

وينزلان الى الارض بالقرب من شجرة ..

ولا تكاد أقدامهما تلمس الارض ، حتى يريا شيطانا كانا يعرفانه من جهنم ..

ويقول لهما الشيطان :

ـ لقد أرسلنى ابليس معكما . لأراقبكما .. وأرصد عليكما حركاتكما ..

ويتحول الشيطان الى قطة سوداء .. تجرى بين أقدام دون جوان وخادمه ..

ويقترب دون جوان وخادمه من بيت العائلة التى قرر ابليس افسادها ..

البيت فى الطريق الرئيسى الذى يوصل الى قلب المدينة .. والسماء هادئة

ورب العائلة قسيس ساذج ..

يأكل ويبسمل .. ويدعو الله كل ليلة ، حين يخلو لنفسه ، أن يخفف من سذاجته ، وأن يقلل من عبطه ، وأن يجعل زوجته تفهمه .. ولو قليلا ..

ويدخل دون جوان وخادمه ، فيدعوهما للاكل .. ويتحدث رب العائلة مع المسافرين مرحبا . ويقول دون جوان للعائلة انه كاتب مؤرخ يهتم بكتابة سيرة دون جوان.

وبينما المائدة ممتدة . اذا بالسماء تبرق وترعد .. والمطر ينهمر ..

فلا يجد المضيف مناصا من استضافة الضيفين الوافدين ..

ويكتشف صاحب البيت ، الطيب القلب ، تلك القطة السوداء ، التى تندس بين أقدام ضيوفه ـ وهى الشيطان

الجاسوس .. فيقدم لها صاحب البيت شيئا من طعام.

وبعد العشاء ، يستمر الحديث عن السفر ..

ويهبط الليل كثيفا ..

فيدعو صاحب البيت ضيفيه الى حجرتى الضيافة ..

وتبدأ المهمة والغواية ..

وينسل خادم دون جوان — العجوز المتصابى — الى غرفة الزوجة ، التى تقرأ فى سريرها كتابا عن الحب والمغامرات .. وتغطى جسدها تماما .. باحكام متين !

والليل هامس بالشطحات للذى يقرأ فى جنح الظلام ..

فيقترب خادم دون جوان من سيدة البيت .. هامسا .. فتصده ..

ثم ينتقل الفيلم الى الأب ، رب العائلة ، الذى يصلى . وتبدو عليه الطفولة الساذجة .. ويدعو — فى نهاية صلاته — أن يوفقه الله حتى تفهمه زوجته !

وينتقل الفيلم الى دون جوان ، فاذا به يقص على الفتاة الأقاصيص ، ويحبك لها شتى الفنون والفتن ..

وتقول له الفتاة :

— قبلنى !

فيفاجأ دون جوان ، ويقبلها بلا اشتهاء ..

مجرد قبلة عابرة !

فتقول له الفتاة الشابة ، ساخرة :

— وهل هذه قبلة !

وتقبله الفتاة قبلة جديدة شابة ، مليئة بالعنفوان والصبا . ثم تسأله الفتاة أن يحكى لها قصة هذا الرجل الذى يكتب سيرته :

دون جوان ..
فيقول دون جوان :
ـ مات بطعنة رجل غيور !!
ويتفرس دون جوان فى الفتاة فلا يستبد به شيء غير الحنان !!
فهو لا يدرى ما الذى يجذبه اليها ، وهو الخبير بحال النساء . فجمالها فريد فى نوعه ولونه ..
انها متوسطة أميل الى القصر من الطول ..
ولكن شعرها طويل شديد السواد يصل الى قدميها .
عيونها ضيقة
ولكن رموشها طويلة ، يزيد من طولها كحل شديد السواد ..
وفمها رقيق ، كورقة الورد ، أو قلب البراعم الوليدة ..
ولكن أسنانها متضاربة ، وان جمعها تناسق غريب !!
وجهها وجه طفلة رقيقة ..
ولفتاتها لفتات أنثى ، تفيض بالانوثة ، وتضج بها أحيانا ..
وأخذ دون جوان يتفرس فيها ..
وهو يبحث سر هذه الجاذبية الغريبة التى تجذبه اليها
هل هى الراحة الغريبة فى هذا التضارب بين قامتها المتوسطة وطول شعرها وغزارته ... وبين ضيق عينيها وطول رموشها ، وفمها الرقيق واسنانها الدقيقة المتضاربة
ان هذا التزاوج يثير الراحة ، لانها ليست صارخة الجمال ولكنها كامنة الفتنة ، تشبه الفاكهة الرقيقة فى خطوطها وانحناءاتها !

وينتقل الفيلم بعد ذلك ، الى مخدع الام التى لا زالت تصد الخادم ..

والخادم يحاول معها كل الاحابيل والحيل

يهمس فى أذنهـــا ، ويلمس عنقها ، ويداعب أطراف أصابعها •• فتنهره ، وتصده ••

فلا يعدم الخادم الشوق ليغويها ••

وقد نزل من الجحيم ساعات ••

فيستخدم معها حيلته الاخيرة !

ويبكى !!

يزحف باكيا •• ويقول :

ــ أصارحك ولا تخافى ••

لقد نزلت من الجحيم • وسجنت فيه مائة عام ••

ولن أعيش هنا الا ساعات قليلة ••

وقد أتيت اليك بكل أشواق السجين ••

وتنهار ••

وتقول ، وهى تقبله بين دموعه :

ــ لقد استخدمت معى كل الحيل •• فلم تنفع ســوى اثارة عاطفة الامومة !

وهنا يظهر الشيطان الحارس ، الذى أرسله كبـــير الشياطين ليسهر على نجاح المهمة ••

ويتحول من قطة سوداء الى رجل ••

ويهرع الى غرفة الزوج •• مولولا ••

والزوج نائم فى سريره ، فيوقظه الشيطان ، ويقـــدم نفسه !

ــ انا الشيطان !

فلا يصدق الزوج بالطبع ، ويقول فى هدوء :

ــ هذا مثير حقا !!

فيصرخ الشيطان :

ـ لن تصدقنى •• ولكن جريمة تجـــرى فى بيتك ، وتحت سقفك ••
فيومىء الزوج فى سذاجة :
ـ هذا مثير حقا !
بلّ هذا مستحيل !
ـ ان زوجتك ترتكب معصية مع خادم ضيفك ..
فلا يتحرك الرجل ، وكأنه يسمع هاجسا من الهواجس
ـ ألا تصدقنى ؟ !
اليك مفتاح الغرفة ، المقفلة عليهما !
ويلقى الشيطان بمفتاح الغرفة على السرير !

فيتحرك الزوج مع الشيطان الرقيب ، الى غرفة الزوجة وفى طريقهما ممر طويل ، يمر منه الزوج والشـــيطان ، ثم يقتربان من دولاب داخل الحائط ••

فيفتح القسيس باب الدولاب ، وينتهز فرصة اقتراب الشيطان من باب الدولاب ، ويدفعه الى داخله ، ويقفـــل عليه ••
ويصيح :
ـ ها !! لقد سجنت الشيطان فى دولاب
ان هذا أروع عمل فى حياتى ••
شكرا لله !!

ويعود الزوج الى غرفته ، وهو لا يفكر فى زوجته ، •• بل يفكر فى الطريقة التى سيعلن بها الى أهل القرية ، وزبائن كنيسته ، كيف انعم الله عليه ، وهو فى نهاية العمر ، فسجن الشيطان فى دولاب ••

ويمضى الليل ، ويقترب الموعـــد الذى حدده كبـــير الشياطين للانتهاء من المهمة ..

ويبدو أن دون جوان قد نسى مهمته التى أتى من أجلها ، والتى سوف تنقذه من عذاب الجحيم مائة عام ..

فلقد أغرق فى الحديث مع تلك الفتاة ـ الطفلة الانثى ـ يقص عليها قصص الشوق.. والحب العنيف.. والليل الطويل والشحوب ، والسهر والحديث العذب ..

وينقضى الموعد .. بلا جدوى ..

فيعود دون جوان خائبا ، بعد أن يودع الفتاة .. بشوق عنيف ..

ويعود الخادم وقد أغوى السيدة ، وأخمد شوقه ونزوته ..

ويستقبل كبير الشياطين دون جوان ثائرا هائجا ..

هل فشل آخر سلاح مع تلك الفتاة ؟ ! ..

ويصيح بغيظ يتفجر :

ـ ولكن كيف ؟

كيف ترضى ، وأنت دون جوان ، أن تقبلها بين عينيها ، وفى شعرها ، وعلى مفرقها ، وبين حاجبيها ، وبين أناملها .. فقط !!

ويقول دون جوان :

ـ لذ لنا حديث الخيال عن العفة والهوى المكتوم !!

ويقول كبير الشياطين :

ـ أيها الخائب ..

أرسلتك لتغويها ، فأغوتك هذه اللعينة المتكبرة ..

فيقول دون جوان :

ـ ولكنك لا تعرف سحرها ..

سحر عيونها الضيقة ورموشها الطويلة .. وقامتها المتوسطة وشعرها الاسود الطويل الذى يغطيها ..

أنت لا تعرف ــ وكيف تعرف ــ شفتيهـا الرقيقتين كالندى .. كالياسمين ..

فيصرخ فيه كبير الشياطين :

ــ اخرس ! كفى . كفى !

يا للخسارة !!

انها لازالت تهدد الشر !

وينكس دون جوان رأسه حالما ..

لقد أراد أن يفشل ، لانه أحبها حب العفـاف ، وكان يستطيع أن يغويها ..

فكيف يشرح للشياطين أنه أحبها ..

ويأمر كبير الشياطين بالقبض على دون جــوان ، من جديد .. فيسحبه الحراس ، والشرر يتطاير ..

ويسأل الحراس كبير الشياطين :

ــ ماذا نفعل به .. ؟

السجن الف عام . النزول به الى حضيض الجحيم ؟!

فيصرخ كبير الشياطين :

ــ بل دعوه يحلم ..

دعوه يحلم .. فسوف يراها فى حلمه ، ويتذكر حبه الذى فارقه فى الارض ..

دعوه يحلم ، ففى الحلم المستحيل اقصى العذاب !

وتنتهى قصة الفيلم ــ بين ذهولى ..

فلقد عاقب الشيطان دون جوان شر العقاب .. بأن يتذكر الارض ، ويحلم بالمستحيل ..

وياله من عذاب ..

أن يحكم عليه بالشوق مائة عام .. أو يزيد ..

وهذه الاسطورة التى أصبحت فيلما ، تصور طبعة جديدة من « عقاب » دون جوان
الفتى المتمكن من الحب ، حين يقهره الشوق !
فليس يعصى على الحب شىء !
وليست جهنم هى العقاب . ولكن الشوق المستحيل هو جحيم العذاب !

. . . .

ولكن قصص الزنوج كلها ، فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن ، تمر بقصة الحب بين الاسود والبيضاء أو بين الابيض والسوداء .. حبا « مستحيلا » ، ليست فيه تلك الرقة والشفافية عند دون جوان ، أو روميو وجولييت ، أو تريستان وايزولد ، ولكنه حب «مستحيل» بأمر المتاريس التى ينصبها البيض ، لو مال أسود الى بيضاء !

ان عذاب دون جوان الاسود عذاب أرضى ، محاط بالخوف والدم !

فالأبيض فى الجنوب ، يستبيح لنفسه حب أى سوداء ولكنه لا يسمح للاسود أن يحب بيضاء

فمصيبة المصائب تقع ، ويشحن جو البلدة بالهيستيرية والصراع

مع أن السود يغرقون البيض بالحب والحنان أحيانا فقد قال لى شاب زنجى :

— ان أغلب هؤلاء البيض المتشنجين فى الجنوب ، كانوا يرضعون فى طفولتهم من صدور زنجيات مربيات !

والعجيب أن الابيض يدعى أن الاسود «قذر»بطبيعته،

وهو ينسى أن السود هم الذين يرضعونه ، وهو طفل وهم الذين يعدون له الطعام ... فالابيض يستخدم الاسود ، ويأتمنه على أطفاله ، وأكله ، ولبنه .. ثم يدعى بعد ذلك قذارته !

وعلاقة الحب بين السود والبيض علاقة محاطة بالتوتر والمغامرة ، وقد كانت فى الماضى حبا كريما من الزنوج ، وبغضا ونزقا من البيض .. فالابيض يطالب بأن يحب (بفتح الحاء) ، والا يطالبه أحد بأن يحب

وكان هذا هو « الجو » الاجتماعى فى مطلع هذا القرن .. حتى ان الزنوج ملأوا أشعارهم وقصصهم بالابتهالات والشكوى والانين . ثم تجد هذه النغمة تتغير فى أدبهم الجديد .. فيصبح الابتهال غيظا ، والالم المسكين صراخا

وقد تطور الادب مع تطور قضية الزنوج ، ووعيهم !

فبعد أن كان الزنجى هو « الحيوان » العاطفى ، الذى يئن ويغنى وبعد أن كان هو حامل الفأس فى الغابة ، أو عبد المزرعة الواسعة تغيرت الامور ، واتجهت اتجاها آخر

ففى الايام الاولى ، كانت الشكوى تغنى .. فى الاغانى الدينية والعاطفية على السواء . ولكنك تلمح الآن لهجة اعتراض وتحد :

اذا كان لابد ان نموت

فلن نموت كالكلاب

وهذا شاعرهم هوجز يقول :

ذات يوم
ستكون لنا أرض فيها شجر
وببغاوات فصيحة
ونهار فى صفاء الماء
أرض ، ليست هذه الارض .
حيث الطيور غربان رمادية !

وقد تفوق الزنوج فى عالم الادب والشعر والالحان الشعبية وموسيقى الجاز . وان كانوا قد اشتهروا بأنهم ملاكمون أشداء ولاعبو بيسبول بارزون

والمضحك حقا ان هذا الذى اشتهروا به ليس هو دلالة العبقرية ، وأن الذى يخفى على الناس هو أن الزنوج هم أكثر الامريكيين « اصالة » فى التفكير والتلحين والشرود ...

فقد كانت أمريكا الى عهد قريب تعتبر « ريف » أوربا ، لا يميزها شىء من أوربا الا فى الحجم ، أو الكم .

فالذين نزلوا بوسطن كانوا يقلدون الايرلنديين ..

والذين نزلوا فرجينيا أو نيو اورليانز كانوا يقلدون الفرنسيين

كانت كل جنسية تهاجر الى أمريكا تنقل شيئا من حضاراتها وكثيرا من عاداتها وتقاليدها ..

وقد لمست بنفسى ذلك الشعور عند الامريكيين ، من أنهم تنقصهم الاصالة والعراقة .. وانهم يعوضون ذلك بالنشاط الشديد ، والحركة المجنونة .. حتى لقد قال لى صديق أمريكى :

— ان ميزة عدم الارتباط «بتاريخ قديم» ، انك تستطيع أن تفعل أى شىء .. فى حرية !

وفى نفس الوقت الذى يحس فيه الامريكيون بضعف هذه الجذور التى تمتد الى الماضى ،يحرصون على «صناعة» تقاليد ، والتحايل على ذلك بفنون عديدة

فأسماء عائلات القرن السادس عشر فى انجلترا وايرلندا ، تجدها أسماء لمطاعم ، وأسماء لقاعات فى فنادق ، مثل تيودور • وويلز ، وغيرها ..

ولكنها تقاليد ، لو تعمقت ، فلن تبلغ أكثر من العصر الفكتورى بمدة طويلة !

وعقدة « التقاليد » تصبح أحيانا هوسا .

لان الامريكيين يعلمون انهم قفزوا قفزة واسعة الى الصناعة والماكينة ، ولم يمروا على الحرف الدقيقة التى تتطلب فنا ودراية وحيلة ... فلست تجد دانتلا اسبانيا ، ولا فخار هولنده ، ولا نقوش دمشق ، ولا زجاج تشيكوسلوفاكيا .. وغير ذلك من فنون الحرف التى لها تقاليد موروثة ، وتعاليم مخصوصة !

ولذلك يتأنق الامريكيون هذه الايام فى اصطناع شىء من التقاليد ، وكثير من الذوق المرفه ..

فلقد أنفقت زوجة كيندى بضعة آلاف على اختيار بضعة لوحات من أوتريللو ، الرسام الفرنسى ، لتضعها فى البيت الابيض .

وقد لا تصدق ذلك الزحام فى المعارض ، والمتاحف.. ولكن آلافا يذهبون ، وقد لا يفهمون ! ولكنهم ـ على أى حال ـ يذهبون .

وقد حدثت لى حادثة فى نيويورك لم أكن لاصدقها لو حكيت لى .

فقد أقام معرض جوجنهايم ، وهو من أكبر المعارض في نيويورك ، عرضا لاعمال الرسام الفرسى الشهير ماتيس .

وتكأكأ الناس على المعرض ، ولم يعد فيه موطىء لقدم من شدة الزحام .

وكتبت الصحف ، وتحذلقت النساء ، وأصبح المعرض حديث المجتمع ... ثم حدثت المفاجأة المذهلة .

لقد اكتشفت احدى السيدات أن لوحة من لوحات ماتيس معروضة بالمقلوب ! ولم يكتشف أحد من الحراس او الامناء أو الخبراء هذه الحقيقة حتى انقضى أكثر من ثلاثة أسابيع !

وكانت فضيحة .

وحين سألت صديقى الشاعر الزنجى ، هل يتفوق الزنوج فى الرسم والنحت ، قال : لا .. ولكن الشعر والنثر والموسيقى . تفوقنا فيها تفوقا شاسعا . وقال الصديق :

ـ الم تلاحظ الفرق بين الاغانى الزرقاء ، والاغانى الروحية

قلت :

ـ الزرقاء عاطفية ... والروحية فيها مسحة من دين .

فقال :

ـ لقد اكتشف الدارسون أن الايقاع فى الزرقاء يختلف عن الروحية .

ففى الاغانى الزرقاء يجملك الايقاع تحرك الايدى ،

والاذرع ، والجسم ، والارجل ... علامة الجزل والطرب والنشوة .

أما الاغانى الروحية ، فالايقاع يحرك فيك الرأس والصدر فقط .

وهذه دقة « خبيثة » تفوت النظر المضطرب ، أو السطحى ، ولا يدركها غير القلب اليقظ .

قلت :

ـ الايقاع فى الجاز يكاد يقترب من الطبل الافريقى !

فقال الصديق الشاعر :

ـ طبل الجاز وارد افريقيا .

ولست أذكر اسم ذلك الباحث الذى قارن بين طبول الجاز ، وطبول الموسيقى الفرنسى برليوز ، فى سيمفونيته الخيالية .

انه يستخدم طبولا قوية معبرة ! ولكن طبول الجاز متقاربة ، متلاحمة فيها نبض وعنفوان طبيعى .

وقال الصديق :

ـ ان موسيقى الجاز ليست أفريقية كلها ، وليست زنجية كلها .

فقلت :

ـ هل تعنى انها تأثرت بالموسيقى الغربية .

ان هناك من يقول ان الزنوج سمعوا الحانا «فرنسية» .. فى نيوأورليانز ... وتأثروا بها .

ويستشهدون على ذلك بأوبرا كارمن لبيزيه ...

فقال :

ـ هذا مستحيل !

ـ لو صح أن الزنوج سمعوا أغانى الفرنسيين فى

نيواورليانز ، فان هذا وحده لا يكفى « لتموين » كل هذه الثروة من الانغام العديدة المنوعة !

وقال :

ــ ان موسيقى الجاز أفريقية الاصل . ولكنها أيضا تعبر عن احاسيس رجل الطبقة الوسطى فى أمريكا بعواطفه وخيبته ، وأمله ...

ــ وتعبير عن السرعة والصناعة .

ــ تماما .. سر موسيقى الجاز هو ذلك الايقاع السريع الذى تجده حولك .. حتى فى الجنوب .

فالسرعة والقفز ايقاع تتعود عليه ما دمت تعيش فى أمريكا . ولا شك أن هذه السرعة صدمت أذان الزنوج أول الامر ، ولكنهم استطاعوا أن يعبروا عنها بليونة ومهارة !

. . . .

فاذا كانت « المدنية » الامريكية فيها حضارة ... فالحضارة للزنوج ، والمدنية للبيض .

وقد أكتشف الامريكيون أنفسهم هذه الحقيقة ، ففى الوقت الذى عكف فيه الامريكيون على جمع المال والمضاربة وفنون الايجار والتقسيط .... هبط الزنوج الى أعماقهم ، يكشفون عن آلامها ، ويكتبون من احلامهم ...

وحين صدمت المدنية الامريكية لاول مرة ، صدمة عظيمة ، مثل صدمة الازمة الاقتصادية فى عام ١٩٣٠ ، اكتشف الامريكيون أن نظامهم ليس كما تخيلوا ..

وبدأ الازمة الاقتصادية تكشف عن أزمة ضمير ، سماها الامريكيون بالزلزال . كان أخطر من الزلزال الذى ابتلع سان فرانسسكو !

ومحور الازمة العنيفة التى تهز الضمير الامريكى هى الصراع بين ما أملك ، وما أنا عليه فعلا .

هل قيمة الانسان بما عنده . أو بما فيه من مواهب ، وافكار ، وقدرة ؟!

والفرق دقيق .

وقد طرحه ادباء أمريكا جميعا بيضا وسودا ..

وليس غريبا بعد ذلك أن يعطف ارسكين كالدويل أو جون شتاينبيك على الزنوج ..

وليس غريبا بعد ذلك أن ينظر المثقفون البيض الى الزنوج على انهم أهل حضارة وأصالة ... فينظر بقية البيض الى هؤلاء المثقفين نظرة الزراية .

وليس غريبا أن يتهم البيض المتطرفون هؤلاء الكتاب بأنهم « ليبراليون » ، أى متحررون ... وهذه وحدها صفة تعطل الاستاذ عن الترقية فى جامعته ... !

وطبيعى ان الذى يجمع المال ، أو الذى يعمل عند جامع المال ، لا يتنبه الى أن تقدير المثقفين من البيض للزنوج مرجعه الى تقدير نفسى له ما يبرره !

. . . .

وأعجب ما تصل اليه ـ بعد ذلك ـ أن الزنوج هم أكثر الامريكيين فنا ، وحضارة ، وتوهجا ، وأكثرهم تأثيرا على الثقافة .. ورغم ذلك ، فهم أقل الامريكيين حظا ونصيبا فى كل شىء !

وقد أحسست أن ظاهرة «اضطهاد الزنوج» متركزة على الزنوج،ولكنها مسألة طبيعية وخفية داخل المجتمع الامريكى واحترت فى تفسيرها

حتى كشفها لى أحد علماء الاجتماع ، الذين يدرسون تاريخ الجنسيات المختلفة فى أمريكا

فقد قال لى : ان امريكا تكونت من وفود وأفواج وأمواج من المهاجرين

لم تكن تحدث ثورة فى اوربا ، حتى تطفح بالمهاجرين والهاربين الىأمريكا

ومنذ مجاعة البطاطس فى ايرلنده فى القرن السابع عشر، وأمريكا تستقبل أفواجا وأفواجا

وقد بدأت الهجرة من غرب أوربا ، ومن ايرلندة وقال :

ـ الارستقراطية الامريكية الآن هى التى ترجعالىأصل ايرلندى مثل عائلات كابوت لودج ، وكيندى !

وقد اجتاحت أوربا ثورات عديدة بعد الثورة الفرنسية، فكانت الامواج والافواج تصل

من فرنسا ، ثم من ألمانيا ، ثم من وسط أوربا . واليونان . وبولنده !

وكانت كل جنسية تستقر فى منطقة ، وتحاول أن « تقتحم » لنفسها مكانا ، وكانت بالطبع ، تجد الصعوبات فى أول الامر . ثم تستقر لها الامور . فتنقلب نظرتها تماما ـ كيف ؟ !

انها تحاول أن تنظر الى الوفود « الجديدة » نفس النظرة التى كانت تلقاها من الذين استقروا وتيسرت احوالهم من قبل . نظرة الكبرياء !

مثلا ، الالمان حين وصلوا ، لم يكونوا يعرفون اللغة ، وكانوا يلاقون مشاق كثيرة ، وكان الايرلنديون والانجليز ،

وهم أسبق منهم في التوطن ، ينظرون اليهم نظرة استعلاء وكبرياء !

ـ وماذا حدث ؟

ـ انتظر الالمان حتى جاءت حربنا مع المكسيك . وهم بطبيعة الحال عسكريون ونظاميون . فانخرطوا في هـذه الحرب . ونجحوا

فبدأ المجتمع يفسح لهم الطريق و « يعترف » بهم .

قلت :

لكن مشكلة « الاعتراف » هي قلب المشكلة

فكيف لم « يعترف » أحد بالزنوج مع أنهم اسـتقروا منذ ثلثمائة وخمسين عاما ؟ !

ـ قبل أن أرد عليك . هناك نقطة هامة ، هي التي أردتها من حديثي

ان الوفود القديمة تعامل الوفود الجديدة معاملة التأفف والضيق .. حتى يكسب الوفد الجديد مكانته ، فيحاول أن يخلص مالاقاه من قبل في الآخرين ! وهكذا !

قلت له :

ـ ولكن لي تفسيرا أحسن ، ولا أعرف مدى صحته ، وهو في اتجاه آخر تماما .

فضحك قائلا :

ـ التفسير الاقتصادي !

قلت :

ـ الى حد ما ، يفسر لي ـ على الاقل ـ سر أزمة الزنوج!

ان عقلية الامريكيين الغالبة عقلية « نفعية »

قيمة الشيء بفائدته . وبأهميته العملية

اذا ما احتجت شيئا ، فله قيمة .

واذا استغنيت عنه ، أصبح شيئا منسيا
الى هنا نتفق .
قال :
ـ لا تنس انها عقلية رومانتيكية أيضا . جمعت بين الرومانتيكية والروح التجارية .
قلت :
ـ اريد ان أقول ، إن البيض يربطون بلا وعي بين الزنوج ، وبين الاقطاع وزراعة الدخان والقطن . وقد دخل الامريكيون عصر الصناعة من أوسع أبوابه ، وهم يشرفون الان على عصر الذرة ...
وهم لذلك لا يعرفون ماذا يصنعون بالعشرين مليون زنجي الذين تخلفوا من أيام العبودية ، والاقطاع ، والقطن.
وقلت موضحا :
ـ ان الامريكي تعود أن يترك السيارة التي لا يحتاج إليها ، وان يركب اخرى ، بمنتهى البساطة
ـ وماذ تريد أن يفعل . أن يبقى متعلقا بسيارة قديمة !
ـ لا ، ولكن اريد ان اقول ان الامريكي يقيس الاشياء بنفعها فاذا لم تنفع ، ألقاها بعيدا . وهو ـ بلا وعي ـ يحس كأن الزنوج ارتبطوا بمرحلة انقضت ، ولن تعود انه يعتقد ان الزنوج انتهى دورهم ، بظهور الآلة !

. . . .

وهذا التفسير على قسوته ، هو سر المرارة الشديدة التي تحسبها عند الزنوج . « الآلة » الانسانية ، و « الحيوان » العاطفي كما يقول غلاة المتطرفين

ولهذا يريد الزنجي أن « يقتحم » المجتمع الامريكي بنفس قواعد اللعبة المقررة !

فهو يبرز فى الرياضة ، ليصبح نجما فى « البيسبول »، والملاكمة .

وهو يبرز فى الغناء ، حتى يصبح الها ومعبود الجماهير .. وصيدا للاعلانات ..

وكل هذه الفنون « اقتحام » من النوع العنيف .. الذى يفرض نفسه بلا منازع .

ولكن الزنوج بدأوا يستخدمون وسائل الضغط والعناد ، والغضب على البيض ... وقد تجمعت لهم الآن قوة اقتصادية لا بأس بها ... وعدد وفير من الذين يأكلون ، ولو اقفلوا أفواههم يوما واحدا ، لاقفلت عشرات المحلات التى ترفض استقبالهم ! .

وهذه القوة « السلبية » تصبح لضخامة العدد ، وشدة التضامن قوة ايجابية

ولقد تذكرت مقاومة غاندى ، التى كانوا يلقبونها بالمقاومة السلبية ، وهى فى الحق مقاومة ايجابية ، لانها فعالة وشديدة الاثر .

وقد اكتشف غاندى — بعبقريته — ان الرأسمالية الانجليزية الضخمة عمادها الآلة ، والانسان المطحون ، فماذا لو اخترع غاندى مغزلا .. ليهدم به هذه الآلة العملاق .

وفى الهند يتجمع مائة ألف أو مائتا ألف ليسمعوا خطيبا ، أو ناصحا .

وهذا « الزحام » الطبيعى كان يعطى المقاومة «السلبية» طابعا ايجابيا .

فقد كان يكفى أن يقول غاندى :

— أجلسوا على قضبان السكك الحديدية فى وجهالقطار

الانجليزى الذى يحمل السلاح ، حتى تغطى الطرق بالبشر فوق البشر . ولا يستطيع القطار الحراك !

وقد بدأ الزنوج يكتشفون فكرة المقاومة السلبية ، فلم يعد يكفيهم الانين والشكوى والابتهال

وانك لتجد دليل ذلك فى أدبهم الذى أصبح احتجاجا وغيظا .. بعـــد ان كان هزيمة وحنـــانا .. وبكائيات

نيويورك ـ انديانا ـ اتلانتــــا ١٩٦٢

الشمس النحاسية



عدت من أمريكا بجرح فظيع .

فاجعة . حزن عميق ، صامت . فقد طال فيه الكلام .

وقد ذهبت الى أمريكا ، قادما من الشرق . ولم تكن رحلتى لامريكا هى أول رحلة فى حياتى .

فأول رحلة كانت الى الهند . وفيها فقدت عـــذرية المسافر !

وللمسافر اول مرة عين جديدة تندهش لكل شىء .

وحين ذهبت الى فرنسا ، لم تكن هذه الدهشة هى التى أحسست بها ، وكأننى فقدت تلك البراءة الاولى .

فالسفر الاول كالحب الاول .

ثم تقلبت بين بلاد العالم العديدة . لاننى أحب السفر دائما . و « أظن » أننى أحب الناس جميعا .

وقد قاسيت فى حياتى عذاب الوحـــدة ـ ولذلك فاننى أعشق الحوار والحديث مع الاخرين . وقد يكون هـــذا تعويضا .

ولهذا أحب الرحلات والاسفار .

ولكننى كنت أسأل نفسى دائما أ لماذا أحب السفر ؟

هل لاننى أحب أن اقطع أوصال ما يستقر فى نفسى من عادات ، ومن علاقات ؟ بحثا عن الجديد !

هل لاننى لا أطيق الحب المستديم ، والرابطة الخانقة

وهل فى هذا شذوذ ؟ .. وجنوح ؟

هل هو القلق المستبد أم الشوق دائما الى جديد ! ..

هل هى رغبة فى أن أحب ، وأن أبتعد ، ثم أحب، وأن أعود .

لون من اللعب بالفراق .

وقد يكون البعد غنيمة ولكنه عذاب

وكثيرا ما غصت فى نفسى ، أسافر فيها الى الداخل ، وكثيرا ما حملت نفسى الى السفر ، فيصيب ما يشبه شفاء غلة العطش .

وأصبحت أتذوق الاسفار .

واكتسبت مرانا . حتى أصبحت أستطيع أن أتصور — تقريبا — البلد قبل أن أصل اليه .

ففى كل مدينة فى العالم ، أحياء قديمة ، وأحيــــاء جديدة . وكثيرا ما ينتخب الاغنيــــاء أنظف الاماكن ، وأصحها ، وأشمسها ، وأهواها . ولم أجد استثناء واحدا بين الشرق والغرب . فالاغنياء يسورون بيوتهم ، ويفتحون نوافذها على الشرق والشمال ، للشمس والهـــواء . ويزرعون الحدائق ، ويفرشون المداخل بالطنافس ، وقد يعوى كلب للحراسة على الضيف الغريب .

وفى كل مدينة أيضا أحياء فقيرة ، وحوارى ضيقة ، وبيوت متداعية ، وزحام شديد ، وأطفال عديدون .

نفس القصة .

والكنيسة كذلك . تختار موقعا سيكلوجيا هائلا ، على الدوام .

المكان المرتفع .

فلا تجد ذروة جبل ، أو قمة تل ، الا وعليها بناء دينى

ومحطة السكة الحديد .. وسط المدينة . حولها الشوارع العتيقة ، بلا استثناء . والفنادق الرخيصة ، والبيوت القديمة ، وأحيانا المطاعم القذرة .

وقد يكون هذا ، لان المحطة تعتبر من أقدم المبانى فى أى مدينة .

حتى لو جددوا مظاهرها ، وطلوا مبانيها الخارجية .

والسوق ، الى جوار المحطة ، أو فى وسط المدينة .

وأروع الاسواق هو سوق الخضار فى الفجر . رائحة فياحة . ونشاط نظيف . والذين يتعاملون مع الصبح المبكر لهم اخلاق وكلهم لا يختلف من مدينة الى أخرى .

رجال ونساء وصبية الفجر والصباح المبكر .

وكثيرا ما تمتعت بالتجوال — بلا برنامج — فى المدن اقف عند منظر غير مألوف .

عند تمثال قديم . أحدث المثال دون أن أقابله . اذرع حديقة عامة ، فأحب الاماكن الى هذه الاماكن العامة التى لا يقفل فيها باب الدخول ، ولا باب الخروج .

وكثيرا ما يدور حوار صامت بينى وبين مبنى قديم ،

او كوبرى صغير ، او رصيف طويل .

واصبحت لا ارى المدن ببيوتها وعماراتها .

ولكننى أحس ان للعمارات وفن العمارة تاريخا وشخصية وكلاما .

.. واستمع الى كلمات الحجارة .

« صوت الصمت » كما يقول أندريه مالرو .

وكثيرا ما يمر فى ذهنى هذا الخاطر الغريب ـ وهو ليس بالغريب تماما :

ـ يمر الناس وتبقى الحجارة .

وهنا ينكسر قلبى ، كما ينكسر رغيف جاف .

لكنها هى الحياة . تأخذها او تدعها .

لكن اطيافا من سذاجة الطفل ـ لا زالت راسبة فى قلبى ـ تطوف فى ذهنى وتلح

ـ نعم يمر الناس ، وتبقى الحجارة

وكثيرا ما وقفت عند تفصيل دقيق مما أراه . فاذا به يكبر فى ذهنى ، كأننى ألقيت حجرا فى جوفى . فتنداح ذكريات وخواطر .. وأطياف أحزان .

فقد تعلمت من الاسفار درسا .

ان الظواهر تخدع البصر والقلب .

ووراء كل الاحجار والمبانى والخضرة والمياه هناك البشر .

ولكل انسان قصة وحكاية .

لو كتبناها لخرج الادب عن كل ما نعرفه عن الادب .

ففى الناس اقاصيص طويلة ، وحكايات كالليالى

المتوالية المتعاقبة . وكل قلب فيه أحراش وأعشاب متشابكة .

وأصبحت بعد حين ، لا أعبأ بالميدان والحجر والمبنى .

فهناك البشر على الدوام ..

قد يطربنى طفل يتلوى قصدا فى مشيته ، أو صغيرة فى ضفيرة ، او عجوز على عصا ، أو رائعة الحسن تمشى على الارض كالأثير طربا وخيلاء ، وبدأت أبحث عن الايدى الخشنة أو الايدى المعروقة .. والايدى الملوثة بالطلاء والزيت والشحوم وطين الزرع ودهان الحيطان

نعم ...

فالحياة هى البشر

وليست شيئا سواهم ..

وهكذا تمنيت أن أعرف الناس على طبيعتهم ، وسجيتهم، سيان عندى اللهو أو العبادة ، فيهما صورة الإنسان .

وكم وقفت أطل على المدن ، فلا أرى على البعد الا بصيصا من النور ، خافتا يكاد يخنقه أو يزيحه الظلام .
وكم تخيلت أن حول هذا الضوء أيضا بشر يعيشون

لهم أحلام وأحزان ومشاريع وثرثرات وهبات وغضبات وحماقات ..

وكثيرا ما ترفقت فى الحكم على الناس أو تباطأت فى القستوة عليهم ..

لا أريد أن أدوس هذا الضوء البسيط بالاقدام ، فقد يكون حول هذا البصيص الصغير بشر . اناس وأطفال ونساء وفتيات وحصوة ملح وجرعة ماء .

حياة ما يسمونهم « صغار الناس » .

وهكذا لم أكن أتصور اننى سأكتب كتابا عن أمريكا يدور حول الكراهية والاضطهاد .

لكنى لم أستطع أن أترك القلم . أو أن أسكت .

فعلى البعد ، ومن وراء هذه الناطحات الضخمة المتلألئة الانوار ، ومن وراء هذه المكاتب العصرية الانيقة ، وتلك القصور الهائلة ، كانت تلوح لى كلما أطللت من غرفة فندقى أضواء صغيرة مختنقة .

فى احشاء المدينة ، وقاعها ، وحول هذه الاضواء القليلة هناك أيضا بشر . لهم قضية لا أستطيع نسيانها .

جرح وسكين .

وخرجت من أمريكا بهذا القلق . ولم أعبأ كثيرا بتلك الارقام التى يغالون فى بيانها واذاعتها ، وأصبحت لا أذكر عن أمريكا وراء الصورة المضيئة والفاتنة ، واللعوب ، واللامعة ، سوى هذه البقعة العريضة السوداء التى تمتد من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال .

. . . .

واصبحت قضية الزنوج من قضايا عمرى ، ولم أحس أنها قضية تبعد آلاف الكيلومترات ويفصلنا عنها محيط وبحار ومرافىء .

وحين استطعت بعد سنوات زيارة داكار ، عاصمة السنغال ، قالوا لى :

ـ هل زرت جزيرة جورى . انها لا تبعد غير ربع ساعة باللنش ؟

وفى الجزيرة ، المهجورة من غير زيارات السياح فى

الصباح ، والتى لم يعد يسكنها من البشر ســـوى بعض الصيادين ، سرت فى حواريها الضـــيقة الرائعة ، التى تظللها أشجار استوائية ضخمة ، وتصبغها ألوان أفريقية حمراء دافئة ، وقذفنى التراجمة ـ المتطوعون من الاطفال والشحاذين ـ الى السجن ٠

ففى هذه الجزيرة ـ الرائعة الجو ـ اللطيفة النسيم ، الصافية السماء ، كانوا ينقلون الزنوج ، ويسجنونهـــم أياما فى سجن منحـــوت فى صـــخرة ضخمة ، تطل على المحيط مباشرة ٠

وفى هذا السجن ، وفى الغرف الصغيرة المظلمة ، كان العبيد يربطون بالسلاسل أسابيع ينتظرون رسو السفن، وبدء الرحلة المضنية عبر المحيط ، حتى يصلوا الى الشاطىء الامريكى ٠

فاذا كانت أمريكا بالنسبة للرجل الابيض حلما ، أخذ يداعب كل من لفظتهم ثورات ومجاعات أوربا ، فان أمريكا كانت هى الوحل الذى هوى فيه الرجل الاسود ٠

مكبلا بالسلاسل ، ومحشورا فى الســـفن الشراعية ، منقولا الى أرض جديدة لا يعرفها ، محكوما عليه بالعبودية٠

وقد كانت أمريكا حلما ٠ ولهذا أقاموا تمثال الحـــرية الواضح الملامح ، الواسع العيون ، الرافع اليد اليمنى ٠ حلم كانوا يرونه وعيونهم مفتوحة ٠

فهذا والت وايتمان ، شاعرهم العظيم ، يتغنى بأرض الخيرات ، والقمح الوفير والشـــــلالات والصحراوات ، والجليد والرمال ، وعيدهم الاهم هو عيد الشكر على هذه النعمة التى أصابوها أو صنعوها ٠

وحتى فرانز كافكا ، هـــذا الاوربى ، الذى يمثل فى أقاصيصه عقدة الاضطهاد والنفى – الى الداخل – والقلق المتوتر المشدود ، كتب قصة – لم يكملها – عن أمريكا . كأنها حلم يطوف بكل الاوربيين .

من ضاقت بهم حوارى ميلانو ، أو ضواحى فيينا ، أو قرى أيرلنده ، أو شواطىء فرنسا ، أو مدن ألمانيا كانوا يشدون رحالهم الى هذه الارض الجديدة .

فكيف بهؤلاء الزنوج ينقلون من بلادهم – فى تجـارة عالمية محكمة الروابط – الى جزر الكاريبى فى البداية ، ثم ينقلون بعد ذلك أفواجا الى أمريكا ، وتصبح تجارة العبيد أربح تجارة فى ذلك القرن .

واتضحت لى حقيقة أمريكا من جذورها .

ان أول زنجى وصل الى أمريكا عن طريق أوربا . وكان الاسبان والبرتغاليون – الذين وصلوا الى ساحل غينيا – هم أنشط التجار وأقساهم . ودخلت تجارة العبيد ضمن قائمة التجارة الاوربية . وفى فجر القرن السادس عشر ، بل فى السنة الاولى ، قررت أسبانيا السماح بنقل العبيد الى أمريكا .

وكانت الثروات الهائلة – البكر – فى أمريكا تحتـاج الى طاقة هائلة من العمـــل . وحاول الاوربيــون فرض العبودية على الهنود ، سكان أمريكا الاصلية ، ولم ينجحوا ، فجاءت تجارة العبيد ، ونقلهم بالسلاسل عبر المحيـط . وتكونت الشركات الهولندية والفرنسية والبلجيكية لبيع البشر . ثم تنافس الانجليز مع الاسبان . وكانت الحرب على المستعمرات ، والعبيـــد . ثم تنافس الانجليز مع الاسبان والهولنديين ، وفاز الانجليز بحق احتكار تجـارة

العبيد ونقلهم الى أمريكا •

وفى ظل هذا الاحتكار جنت بريطانيا ثروات طائلة ، لانها أنشأت مراكز عديدة فى أفريقيا لهذه التجارة •

ويقول أحد التجار فى كتاب قديم كان العبيد يفضلون الهرب من « السفينة السجن » ويغوصوا تحت الماء ، فيموتوا ، أو يأكلهم سمك القرش • وكان العبد يربط بالعبد • وكانوا يسمون الرحلة « العبوة » • وكانوا يحشرون فى قاع السفينة ، فلا يستطيعون الحركة طوال الرحلة • واستخدموا العبيد فى زراعة الدخان فى البحر الكاريبى • ثم جاء القطن ، فكان كارثة على الزنوج • لانه يحتاج الى عمل مستمر وحشد كبير •

وبدأت الحشود ترسل الى فرجينيا ، ثم ماريلاند ، ثم كارولينا ، وجورجيا •

. . . .

وليس صحيحا أن الزنوج رضوا بالعبودية ، أو كانوا ، كما تصورهم أفلام البيض ودعاياتهم يمثلون الرضا الساذج ، ففى بداية تاريخهم صفحات مهجورة أو مجهولة من المقاومة ••

مؤامرة كاتو فى ريف شارلستون ١٧٣٩ ، أقلقت البيض ، وأضرمت النيران ، وانتهت الى تقوية القوانين المعادية للعبيد •

نيويورك ١٧٤٠ تشتعل بالثورة • ثمانية عشرة يعدمون شنقا • وثلاثون يموتون حرقا •

والعجيب أن صفحات الزنوج تسجل أبشع الحقائق عن الانجليز ، ومع ذلك ، فهم يروجون فى أفريقيا وآسيا انهم هم الذين تزعموا حركة تحرير العبيد ، وكانوا يحاربون العرب من أجل ذلك الهدف الانسانى النبيل !

وكان الانجليز أنشط الاجناس فى تدعيم وتوسيع العبودية ٠

وكانوا أنشط الاوربيين فى التجارة والاستعمار وبيع العبيد ٠

ولم يعرض الانجليز على العبيد فكرة تحريرهم ، الا أثناء الثورة الامريكية ٠

أرادوا أن يستميلوهم الى جانب انجلترا ، ورفض الجنرال واشنجطون ـ فى السنة الاولى ـ تطوعهم فى الثورة ولكنه اضطر أخيرا الى قبولهم كمحاربين وبحارة

ولا تسجل سجلات الثورة اسم أى زنجى ، فلم يكن يذكر الاسم ، وكان يكتفى بالقول : متطوع زنجى ، أو زنجى مجهول ٠

وحين بدأت أول ثورة ديمقراطية فى أمريكا ، بمناسبة دستور الاستقلال ، ١٧٨٧ ، علت الاصوات ضد فكرة تحرير العبيد ٠

وظلوا بلا أسماء أو حرية أو كيان ٠

حتى بعد أن تطورت أمريكا تطورات هائلة ٠

التجارة تتسع ، وأمريكا تشترى لويزيانا ١٨٠٣ ، والامريكيون يهاجرون اليها، ولكنهم يحملون معهم العبيد، وحتى فى حرب ١٨١٢ ، كان الزنوج يحاربون ، أملا فى الفوز فى النهاية بالحرية ٠ ولكن الحرب تنتهى والعبودية تبقى

الانتقال والتعمير فى كل مكان ٠

ممالك القطن تعم أمريكا ، والعبيد باقون ٠

وعلى الرغم من اقفال سوق العبيد فى أفريقيا رسميا

فى عام ١٨٠٨ ، الا أن التجارة السرية وتهريب العبيد ظلا يمولان حقول القطن الشاسعة .

وظلت أمريكا تضع القوانين تلو القوانين ، تمنع العبيد من رفع القضايا ، أو حلف اليمين ، أو عقـــد الزواج ، وتعتبر أولادهم غير شرعيين — لان القانون لايعترف لهم بحق الزواج — ويمنع الزنجى من أن يضرب أبيضا ، حتى فى حالة الدفاع الشرعى ، وانتهـــاك شرف زنجية يعتبر عدوانا ، على مالكها الابيض ، لا على الانسانة التى أصابتها الجريمة !

وقائمة التحريم عجيبة وشاذة .

ممنوع تعليم القراءة والكتابة .

ممنوع سير أو تجمع أكثر من ســـبعة أشـــخاص من السود ، دون ان يصحبهم سيد أبيض مسلح .

ممنوع التجول بين مساء السبت وصباح الاثنين .

ممنوع الانتقال من مزرعة السيد ، الا باذن كتابى .

الممنوعات على السود ، والحرية للبيض .

والشىء الوحيد الذى حرم منه البيض — وهـــذا نص صريح فى القانون — هو تحرير العبيد ، حتى لو انتقلوا الى الديانة المسيحية !

وبدأت الاغانى الحزينة ، والشجاعة ، وبدأت حركات العصيان ، والاحراق ودس السم — أحيـانا — وأصبحت مشكلة هرب العبيد « أهم » مشكلة يعانيها الاقتصـــــاد الامريكى . حتى أن زنجية فى كارولينا الشـــــمالية هربت ١٨ مرة ، وكانت تعاد دائما الى ضـــيعة المالك الابيض .

. . . .

وحين أصدر لنكولن نداء يطلب المتطوعين فى الحرب الاهلية ، تقدم الالاف من الزنوج ٠

ولكنه رفض هذا التطوع بضغط من جنرالات الاتحاد ومن الكونجرس ٠

وقال لنكولن انه يخشي قبول الزنوج ، فيرفض البيض القتال في صفهم ، حتى في سبيل قضية واحدة ٠

وبدأ تحرير العبيد ، لاول مرة فى أمريكا ، كعقاب ، للمالك الابيض الخائن ٠

يعاقب بتحرير عبيده !

وفكر لنكولن فى ارسال الزنوج الى خارج أمريكا : الى أفريقيا أو البحر الكاريبى ٠

ثم فكر فى تعويض الملاك البيض عن تحرير عبيدهم ٠

وفى السنة الثانية من الحرب ، رأى لنكولن أن تحرير العبيد سيساعد على انهاء الحرب بسرعة ٠ وعرض قرار تحرير العبيد على مجلس الوزراء ، فعارضه المجلس ،وقرر الانتظار ٠

وبعد عام آخر ، أصدر قراره بأن العبيد الذين لا يزالون ثائرين على ملاكهم البيض المعارضين للوحدة الامريكيين يكون لهم الحق فى الحرية ٠

وفى قرار التحرير الاخير ، دعا الزنوج الى التطوع لانهاء الحرب ٠

ومات ۳۸٫۰۰۰ زنجى فى سبيل الوحدة الامريكية ،أى ما يزيد ٤٠ فى المائة على عدد البيض الذين ماتوا فىسبيل هذه القضية الامريكية الكبرى !

ورغم ذلك العرق فى الحقول ، والدم فى الميادين فى حرب

الاستقلال والثورة ، والموت فى حرب الوحدة ، ظهرت جماعة الكوكلوس كلات ـ لاول مرة فى عام ١٨٦٧ ، تعارض تحرير العبيد بالقتل والارهاب

ونزح الآلاف من الزنوج من الجنوب الى الشمال

. . . .

وبدلا من أن تحل المشكلة تفاقمت أخطارها

فقد نزح الزنوج من الريف الجنوبى ، الى المدن الشمالية، وبدأت معارك الضواحى فى المدن الصناعية

ومن هنا نشأت احياء السود فى كل المدن

على الاطراف القاصية ، وعلى الحدود الشائكة ،وبين الفريقين حرب لا تخمد من الكراهية

وأصبح فصل البيض عن السود هواية كل المشرعين الامريكيين

حصار السود بالقوانين . واقفال المساكن والمدارس والمستشفيات والاماكن العامة فى وجه الزنوج .

وكان أعقل الامريكيين البيض ، وأكثرهم سماحة يقولون :

ـ اذا أرادوا المساواة ، فليبتعدوا وينفصلوا عن البيض فى أحياء مقفلة وخاصة .

وظهرت هارلم فى نيويورك ، وهارلم فى كل المدن الامريكية

وكما يقول أحد الممثلين الزنوج :

ـ المشكلة ليست فى أن المؤلفين البيض يختارون للسود أدوارا محددة بالذات . ولكن المشكلة أصعب من ذلك .

لانهم يختارون طريقة « رد الفعل » التى على الممثل أن يؤديها
انهم يرسمون دور الزنجى ، وكذلك رد فعله أمام الممثل الابيض
وهكذا أصبحت المشكلة امام الزنوج ليست فى انعدام المساواة ، وانكار الحقوق ، بل فى أن البيض يرسمون كذلك طريقة ردود الافعال التى « يختارها » الزنجى .
فالزنوج يحتجون بلا شك على انعدام المساواة

لكنهم اذا أرادوا أن يحتجوا ، فعليهم أن يحتجوا فى طريق محدد مرسوم ، هو السعى أمام المحاكم العليا ، أو المقاومة السلبية ، أو الدعوة الى التطور البطىء والتدريجى

أى أن البيض يفرضون الظلم ويفرضون وسيلةلاحتجاج على الظلم أيضا

وهذا هو أخطر ما فى قصة الزنوج

وهكذا بعد أن سارت احتجاجات الزنوج فى طريق الثورة والعصيان ، بدأت احتجاجاتهم تسير فى الطريق الذى رسمته لهم البيض

الطريق الديمقراطى ، أو السلبى ، أو الاحتجاج بالاشعار والاغانى

وكان أعظم زنجيين فى تاريخ الزنوج ، هما دى بوا ، أعظم عقلية زنجية ، انتهت فى النهاية الى الحياة فى غانا ، واكتساب الجنسية الغانية ، ودى بوا هو أستاذ نكرومه وازيكوى وغيرهما من زعماء افريقيا

ثم جارفى الذى كان يدعو الى عودة الزنوج الى أفريقيا وليتركوا هذه القارة الأمريكية بخيراتها وبيضها وذنوبها
. . . .

وقد تأكد لى من زيارتى لأمريكا أن قضية تحـــرير ومساواة الزنوج تلقى من العنف ما يدعو الى التشاؤم .

واستطيع أن أؤكد أن المجتمع الامريكى يخلو من التراث الثورى ـ الذى يقبل فكرة المساواة ويناضل لتحقيقها

فعلى الرغم من السيئات والفظاعات التى ارتكبتهـا الرأسمالية الفرنسية ، فقد لمست بنفسى أن التقـــاليد الجمهورية فى داخل فرنسا ، قد رسبت فى ضمير الفرنسى العادى ـ حتى أن هذا المواطن يقبل المساواة بين الاجناس كأمر طبيعى

« المساواة واحترام الحضارات واحترام الجهد الانسانى ليس شيئا تنص عليه الدساتير

انما هو احساس حضارى يتعمق حتى يصـل تحت الجلد كما يقولون ، ولابد أن يتنفسه المواطن حتى يصبح أمرا عاديا ، بلا تعكفا او تفضل

ولابد أن يسقط حاجز اللون ، وحواجز التفرقة عموما، وهذه قيمة حضارية عالية ، أظن أن المجتمع الامريكى ـ بتطوره الراسمالى ، وقيمه ومثالياته لايهضمها بسهولة

ولست أظن ان المساواة بين المواطنين شىء تنص عليه الدساتير ، فيصبح حقيقة . لان المساواة لابد أن تكون امرا طبيعيا ، لانها أمر طبيعى

وبمعنى آخر ، فان المجتمع الامريكى الذى يقـــوم على التفرقة الاجتماعية ـ كأساس حضارى يقدسونه باسـم الفردية والحوافز والتقدم ، لا يمكن أن يهضم التنازل عن تفرقة اللون

فالذى يهضم تفرقة اللون ، انما يمهد لتفرقة الثروة ، وتفرقة الحظوظ والاقدار . وهذا الذى يدافع عن حدود

الالوان ، انما يدافع أو يمهد للدفاع عن فوارق الثـروات وتفاوت الخطوط فى الحياة

وحتى الآن ، فان الذى يرسب فى المجتمـع الامريكى الرأسمالى ــ تاريخيا ــ هو أن حل مشكلة الزنوج انما يأتى بالابعاد والاقصاء الى أفريقيا مثلا

وهو ليس حلا يهضم المساواة فى داخل أمريكا وانمـا يقبل المساواة على أن تكون بعيدة عن حدود هذه القـارة

والذى رسب فى المجتمع الامريكى ، هو أن اشتـراك العبيد فى ثورة الاستقلال ، أو حرب الوحدة لا يشفع لهم المطالبة بالمساواة

فاذا ما تقررت المساواة فى الدستور الاتحادى ، قامت الكوكلوكس كلان ، بالارهاب لمنع تطبيق القوانين

واذا ما سألت أمريكيا عاديا عن هذه الجمـــاعات الارهابية ، وجدته يوافق على وجودها ، ضـــمنا ، لانه يتصور أن هذا الارهاب هو الذى يحمى البيض من التطرف فى المساواة !

وهذه هى نفس الفكرة التى تجعلهم يؤمنون ان البطالة هى الضمان للنظام الاقتصادى ، ليكون صحيح البدن قويا

والامريكى العادى يؤمن بفكرة التوازن ، ولذلك فهو يقيم نظاما متطرفا خوفا من التطرف

وهذا هو أخطر ما وصل اليه المواطن العادى فى امريكا

ان يقلب الاوضاع ، فيتصور أن التفرقة العنصرية هى شىء طبيعى ، لا مدعاة للاحتجاج عليها ، واذا كان لابد من الاحتجاج ، فليكن احتجاجا هادئا ، وتطورا بطيئا « على الطريقة الامريكية »

وهذا هو الذى جعل القضية تطول كل هذا الوقت ،
ولا تجد حلا

وهذا هو الذى جعل القضية تتفاقم

وقد جرب الزنوج كل شيء للاحتجاج الهادىء ، فلم ينجحوا

وهم يجربون الآن الاحتجاج الصارخ واستخدام العنف

لان من يزرع الاضطهاد يحصد الثورة

وكل ثورة ــ كما يقولون ــ هى اصلاح مؤجل

وثورة الزنوج تهز أمريكا من الساحل الى الساحل ،
ومن مزارع الجنوب الى هارلم

وليست هذه سوى بداية النهاية

فأنصار التفرقة يستطيعون فرض البداية ، ولكنهم لا يستطيعون فرض النهاية لمأساة قديمة ، تتجدد كل صباح .. وتنزف دما متواصلا لا ينقطع !

القاهرة ١٩٦٧

كتب أخرى لكامل زهيرى

لمحات عن كافكا مع آخرين	١٩٥٤
بدلا من الخوف لانورين بيفان	١٩٥٦
جميلة مع آخرين	١٩٥٨
مذاهب غريبة	١٩٥٨
الدولة فى النظرية والتطبيق لهاروللاسكى	١٩٥٨ و ١٩٦٤

تحت الطبـــــع

منازعات فى الاشتراكية والديمقراطية

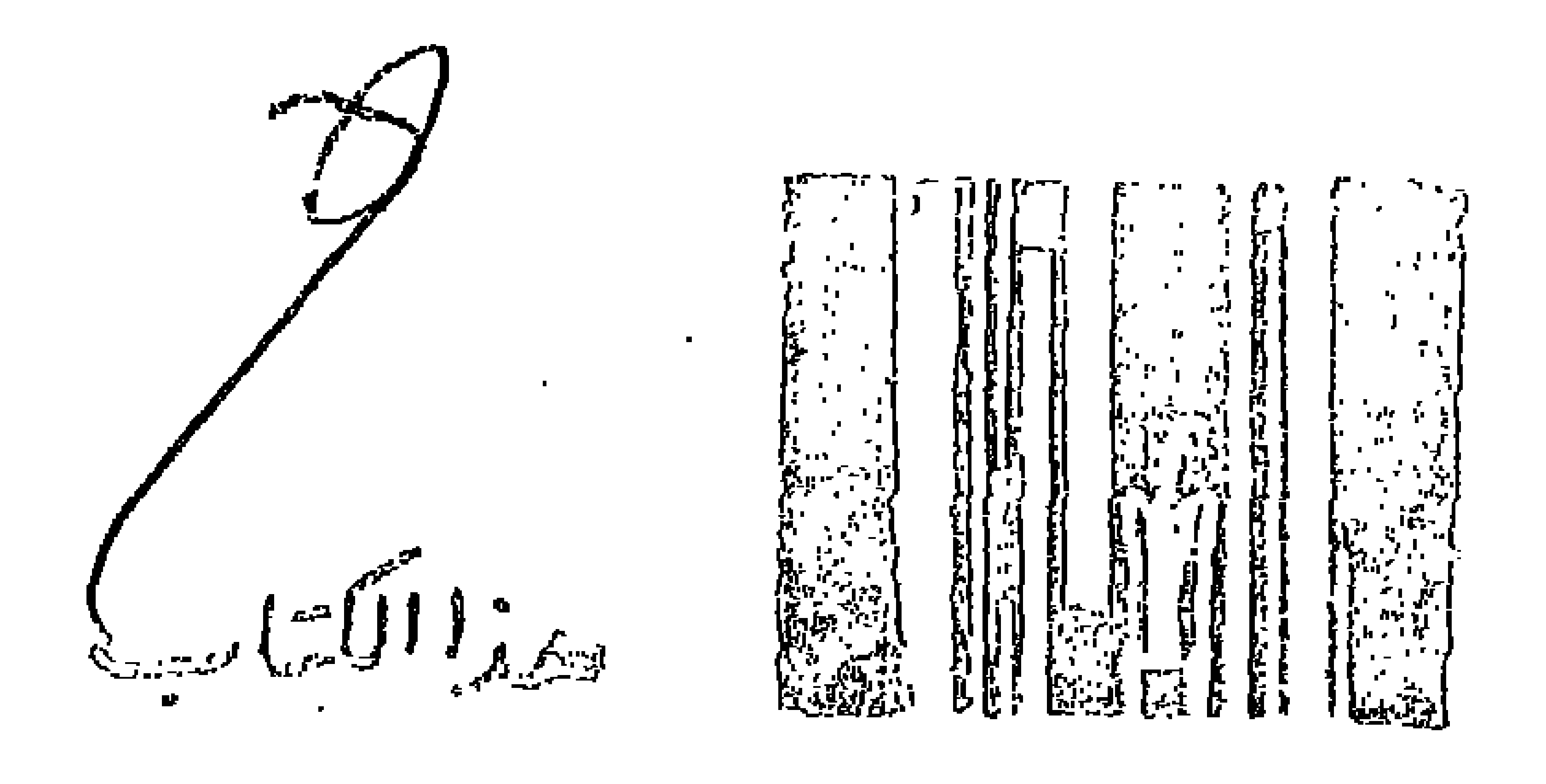
فهرس

صفحة

نيويورك .. مدينة السكتة القلبية 7
هارلـــم ١٣
جيمى .. أعظم لا شىء فى العالم ٢٧
شارع الغيظ ٣٣
رجال تقريبا ٤٣
يسقط المجــد ٥٣
لا .. لا أستطيع ٦٥
الى الجنــوب ٧٣
ممنوع الهمس ٨١
عصر السرقة ١٠١
الغريب والصمت ١١١
الهزيمة والحنــــــان ١٢٣
الشمس النحاسية ١٥٧

دار الهلال تقدم : لاحسان عبد القدوس

- البنات والصيف
- لا انام
- فى بيتنا رجل
- النظارة السوداء
- اين عمرى ؟
- الطريق المسدود
- انا حرة
- شفتاه
- شىء فى صدرى
- بئر الحرمان
- منتهى الحب



بعد اكثر من مائة عام من اعلان ابراهام لنكولن تحرير العبيد ، لايزال الزنوج فى امريكا يلاقون الوان الاضطهاد والتفرقة . وقصة الزنوج تكشف الفارق بين الديموقراطية النظرية ، وبين الحقيقة المريرة

وهذا الكتاب هو أول كتاب يصدر بالعربية لرحلة قام بها المؤلف فى امريكا ، واقام فيها بين الزنوج

ان المجتمع الامريكى الذى يقوم على التفرقة العنصرية هو الذى يساعد اسرائيل التى تقوم على التفرقة العنصرية ، وسيادة الجنس الابيض

وفى هذا الكتاب تفسير لما رآه الكاتب وسجله بأمانة لمشكلة من اخطر مشاكل العصر ، وسؤال من اخطر الاسئلة :

ـ ما هى حقيقة أمريكا ؟ !

